الذاتية الإسلامية

وموقفها من الإلحاد الشيوعي

د. رءوف شلبي

حول مفهوم الذاتية الإسلامية وتطبيقها

[عن أبي السوَّار العدوي قال : سمعت عمران بن حصين قال : قال النبي ﷺ :
« الحياء لا يأتي إلا بخير »

فقال بشير بن كعب : مكتوب في الحكمة : إن من الحياء وقاراً ، وإن من الحياء سكينة .

فقال عمران : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن صحيفتك]

رواه البخاري



أ - في مفهوم الذاتية الإسلامية

ليس من الجيد علمياً أن نضع في المقارنة أمرين أحدهما على النقيض من الآخر ، لاسيما اذا كان أحدهما حقاً معصوماً ، والآخر باطلاً مهزوماً .

والسخيمة الماركسية تهافتت فى نفسها من عـدة نواحٍ :

فقد تراجع صاحبها عن أكثر مقولاته ، وكان قد وعد بإعادة النظر فى « فائض القيمة » تحت ضغط نقد الاقتصاديين وعلماء الاجتماع ، ولكنه هلك دون أن يفى ؛ وفي هذا التراجع تهافت لضلع من أضلاع هندسته .

كما أنه رأى الحركة العمالية في بريطانيا تسير فى خط متعارض مع نظريته ؛ فبينما يقول بالشقاء المتزايد للعمال . . كان العمال فى بريطانيا تتحسن أحوالهم المعيشية ، إلى درجة إمكان عقد صلح دائم بين العمال وأصحاب المصانع .

وطلب إلى « ماركس » أن يغير نظرية « الصراع » فرفض ، ودفن رأسه في سجلات المتحف البريطاني مثل النعامة ، متجاهلاً الأحداث العمالية التي

تجري من حواليه ، فدل تجاهله على إصراره على جهله ، وأنه يخبط في الظلام والخيال .

ولما درس الحياة الزراعية فى روسيا اقتنع بعدم ضرورة « مرور الثورة فى مرحلة التركيز » ، وأنه يمكن قيام ثورة تؤدي إلى الاشتراكية ، دون المرور بالنهر الماركسي ، الذي حددته نظرية « التركيز » فدل ذلك على فساد في النظرية ، ومجافاتها للواقع ، الذي يجري على وجه الأرض ، ويعايشه الناس في حياتهم الواقعية .

ومن هنا ، فإنه لايستقيم أن توضع هذه السخيمة فى مقارنة مع مذهب معتمد ، له أصوله الفكرية ، وصدّقت بعض جزئيات الأحداث على قواعده . فما بالك اذا وضع الإسلام ، وهو الوحي المعصوم ، فى مقارنة مع كلام فارغ ، صادر عن الحقد والكراهية ؟!

إنني عاتب على كل من وضع الإسلام فى مقارنه مع مذهب أرضي ، فضلا عن هذا المذهب المتداعي ، حتى في ظل حياة صاحبه ، فقد قال الله جل شأنه : ﴿ **فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟!** ﴾ يونس ٣

ولقد جاءت هذه المقارنات بين الإسلام وبعض المذاهب المعاصرة ، نتيجة حسن قصد من المدافعين عن الإسلام ـ وجزاهم الله خيرا ـ ولكنهم نسوا أن « الذاتية الاسلامية » ترفض هذا السلوك ، حتى ولو كان عن حسن نية وقصد كريم .

فلكم أراد المشركون هذه المساومة مع النبى ﷺ وتمنوا أن يجاريهم فى حلولهم ، ولكن الرسول ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ كان يرفض . يقول الله تعالى : ﴿ **ودوا لو تدهن فيدهنون** ﴾ القلم ٩ .

فهي إذن المساومة والالتقاء في منتصف الطريق كما يفعل التجار . . ولكن فرق بين الاعتقاد والتجارة ؛ فصاحب العقيدة لايتخلى عن شيء منها ، وما

كان يمكن أن يلتقي الإسلام والجاهلية فى منتصف الطريق ، ولا أن يلتقيا في أي طريق ، فالهوة بين الإسلام والجاهلية لاتقام عليها قنطرة ، ولاتقبل قسمة ولا تصلح معها صلة .

وقد جهدت قريش فى مساومتها مع النبى ﷺ ليتابعهم فى شىء مماهم عليه ، فيتا بعونه فى دينه ، حفظا لماء وجوههم أمام جماهير العرب ، ولكن الرسول ﷺ كان حاسمًا مع موقفه من دعوته ودينه ، لايدهن ولايلين ، مع أنه فيما عدا الدين ألين الخلق خلقاً ، وأحسنهم عطفاً ، وأجملهم ودًّا ، وأكرمهم أنسا ، وأعظم رفقاً ، وأحسنهم إحسانا .

وكان الأمر القاطع : ﴿ فلاتطع المكذبين ﴾ ذلك موقف يعرف في الجو الإسلامي بالذاتية الاسلامية ، والنصوص القرآنية في تصوير مفهوم الذاتية الإسلامية كثيرة ، وإنها لتضع المسلم منذ أن يدخل في الإسلام على مفرق بعيد عن الكفر والكافر ، والجاهل والجاهلية يقول الله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ الكافرون ٦

أنا هنا ، وأنتم هناك . لاجسر ولا معبر ، ولا طريق يصل بيننا ، إنها مفاصله كاملة ، وهي مفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الدين الجوهرية ، وتميزها عن كل مايغايرها فللدين جوهر ومنهج وطبيعة لابد من إبرازها ، ولايتأتى تمييزها إلا بهذه المفاصلة البعيدة ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ !!

فالجاهلية في أي زمن هي الجاهلية ، والإسلام كدين من عند الله هوالإسلام ، لايتبدل ولا يتغير فالفارق بينهما بعيد ، والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته ، إنه الانسلاخ التام من الجاهلية بكل مافيها إلى الإسلام بكل ما فيه . .

وأول خطوة في الطريق هي تميز المسلم عن الجاهلية ، وذلك لا يكون إلا بالمفاصلة والانعزال عن تصورات الجاهلية ومنهجها . . انعزالاً في التصور

والمنهج والسلوك ، وهو انعزال لايسمح بالالتقاء في منتصف الطريق ، فإن الالتقاء في منتصف الطريق يفسد الحقائق ، لأنه يخلطها ، فكيف يلتقي اللون الأبيض مع الأسود في منتصف الطريق ؟ كذلك كيف يلتقي الحق والباطل في منتصف الطريق ؟

● إذن هي البراءة الكاملة ، والمفاصلة التامة ، والحسم الصريح : ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾ وبغير هذه المفاصلة وهذا الحسم سيبقى الغش ، ويبقى اللبس ، ويبقى التضليل .

وذلك مايريده الخصوم ، حتى لايتميز الحق من الباطل ، فإن الحق لايستقيم أمره إلا إذا تمت المفاصلة بينه وبين الباطل جميعاً .

● ويؤكد القرآن الكريم على ضرورة هذه المفاصلة ، والفرقة بين الجاهلية والإسلام ؛ فيقول الله تعالى : ﴿ **فاستمسك بالذي أوحي إليك . إنك على صراط مستقيم** ﴾ الزخرف ٤٣

اثبت على ما أنت فيه ، وسر في طريقك ، لاتحفل بما كان منهم وبماسيكون ، كن مطمئن القلب ؛ إنك على صراط مستقيم ، لا يلتوي بك ولا ينحرف ولايحيد فهذه العقيدة متصلة بحقيقة الكون الكبرى ، ومتناسقة مع الناموس الكلى ، الذي يقوم عليه هذا الوجود فهي مستقيمة ، وهي مؤدية بصاحبها إلى خالق هذا الوجود ، وهي على استقامة تؤمن معها الرحلة إلى الله في ذلك الطريق : الإسلام .

● والاستمساك بالذي أوحى هو « الذاتية الإسلامية » التي لاينبغي الزيادة فيها ، ولا الخروج عنها ، ولا النقص في جوهرها . يقول الله تعالى : ﴿ **فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا . إنه بما تعملون بصير ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون** ﴾ هود ١١٢ ، ١١٣

أحسن النبي ﷺ برهبة هذا الأمر : (استقم) حتى روي عنه ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ أنه قال : « شيبتني هود » .

فالاستقامة : هي الاعتدال ، وهي المضي على المنهج ، دون انحراف وهي في حاجة إلى اليقظة الدائمة ، والتدبر الدائم ، والتحري المستمر لحدود الطريق ، وضبط الانفعالات البشرية ، التي تميل الاتجاه قليلاً وكثيراً ، ومن ثم ، فهي شغل دائم في كل حركة من حركات الحياة .

والذي يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة لم يكن نهياً عن القصور والتقصير ، إنما كان نهياً عن الطغيان والمجاوزة ، وذلك أن الأمر بالاستقامة ومايتبعه في الضمير ، من يقظة وتحرج ، قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة ، التي تحول هذا الدين من يسر إلى عسر ، والله يريد دينه كما أنزله ، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولاغلو ، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته .

فالمطلوب إذن هو الاستقامة على الصراط السوي بلا انحراف إلى الغلو ، أو الإهمال على السواء .

وهذا الأمر بالاستقامة له ضابط يضعه الإسلام في موضعه الصحيح . يقول الله تعالى : **﴿ واتبع مايوحى إليك ، واصبر حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين ﴾ يونس ١٠٩**

تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك ، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ، حتى يفتح الله بينك وبينهم ، فإنه ـ جل جلاله ـ خير الفاتحين بعلمه وحكمته

وتأتي ضوابط المفارقة في آخر سورة هود :

﴿ وقل للذين لايؤمنون : اعملوا على مكانتكم ؛ إنا عاملون ، وانتظروا إنا منتظرون ﴾

﴿ ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ومااربك بغافل عما تعملون ﴾ .

لقد افترق الذين لايؤمنون عن الذين يؤمنون . افترقوا فرقة لاحيلة للالتقاء في طريق منتصف بينهما ، فليعمل كل على شاكلته .

أما الذين آمنوا فهم يعبدون رب هذا الكون ، الذي يسيره ويرعاه ، وأليه يرجع الأمر كله : أمر السموات والأرض ، ومن فيهما ، وأمر هذه الدعوة والمؤمنين بها المعاندين لدينه ودعاتها ، وما على الذين آمنو بهذا الدين لا أن يعبدوا الله حق عبادته : عبادة لا ينزه فيها غير الله : في التوحيد ؛ والتشريع ، والحمد ، والاستسلام ، عبادة تشمل الكون كله ، حتى يسجد الناس جميعاً لرب العالمين . ولايضر المسلم أراجيف الخصوم ؛ فإن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون .

ولقد حقق الرسول ﷺ هذه المفاصلة البعيدة . يقول الله تعالى :

﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ، فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ! ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ الزمر ١٤ ، ١٥

تلك مرة ثانية يكرر القرآن الإعلان مع الإصرار على المضي في الطريق ، وترك المشركين لطريقهم ، ونهايته الأليمة .

مرة أخرى . . يعلن النبى ﷺ أنه ماض في طريق الله ، يخصه وحده ـ جل في علاه ـ بالعبادة ويخلص له الدينونة ، غير مبال بما عليه الكفار ؛ فليمضوا هم في طريقهم ، فإنها إلى الخسران تنتهي : خسران النفس التي تنتهي إلى جهنم ، وخسران الأهل مؤمنين ، أو كافرين ؛ فإن كانوا مؤمنين فقد خسرهم المشركون ، فقد اختلف الطريق ، واختلفت نهايته ؛ ففريق في

الجنة ؛ وفريق في السعير ، وإن كانوا مشركين كانوا مثلهم في الجحيم ، وذلك هو الخسران المبين !

ويريد القرآن الكريم أن ينتزع هواجس النفس عن « التزام الذاتية الإسلامية » فيجعل من أساسيات الاعتقاد : أن الضرر والنفع بيد الله وحده يقول الله تعالى : **﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ؛ وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم ﴾** ١٠٧ ـ يونس .

بهذه العقيدة يقف رسول الله ﷺ والدعاة الذين يسيرون على منهاجه في وجه القوة والكثرة ، ووجه الرواسب الجاهلية ، ويعلنها في قوة وفي صراحة ، وكان في عدد قليل من المؤمنين في مكة المكرمة ، وكانت القوة الظاهرة يومها للمشركين .

ولكنها الدعوة ، و« ذاتيتها الإسلامية » وتكاليفها الشاقة ، ومن ثم كان الإعلان الفاصل : **﴿ قل يأيها الناس . قد جاءكم الحق من ربكم ؛ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ؛ ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل ﴾** . ١٠٨ ـ يونس .

فهي الكلمة الفاصلة بين طريقي الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والإسلام والجاهلية ، ولالقاء بينهما مابلّ بحر صوفه !.



ولم يترك القرآن الكريم مفهوم الذاتية أمراً تتدبره العقول ، وتفسره الحماسات ، وتؤوله الرغبات ، وإنما قدم القرآن الكريم الدروس العملية التي تحدد مدلول المفهوم ومداه ومحتواه ؛ فقدم القرآن الكريم عدة نماذج :

- في مواجهة الجبروت بالسلطان
- في مواجهة الجبروت بالمال والجاه

أولا : في مواجهة الجبروت بالسلطان :

قصة « أصحاب الأخدود » حقيقة جديرة بأن يتأملها المؤمنون ، الذين يتصدون لدعوة الله ؛ فالقرآن يعرضها فى جوها الخاص ، ويوردها بأسلوب يعرض المقدمات مع التعقيبات ، دون أن يذكر النتائج ؛ ليصور بكل خط من خطوطها صورة الذاتية الإسلامية في تصور طبيعة العمل للدعوة إلى الله .

إنها قصة فئة آمنت بربها ، واستعلنت حقيقة إيمانها ، ثم تعرضت للفتنة من أعداء جبارين ، بطاشين ، مستهترين بحق الإنسان في حريته : أن يؤمن بالله العزيز الحميد ، وبكرامته كعبد أخلص قلبه لله وحده .

وقد ارتفع الإيمان بقلوب هذه الفئة المؤمنة على الفتنة والتعذيب ، وانتصرت في قلوبهم عقيدة الإيمان بالله العزيز الحميد على حب الدنيا ، فلم ترضخ الفئة المؤمنة لتهديد الجبارين الطغاة ، ولم تفتن عن دينها ، وهي تحرق بالنار حتى تموت .

لقد تحررت هذه القلوب من العبودية لمن سوى الله ؛ فلم يستذلها حب البقاء وهي تعاين الموت في نيران الأخدود .

لقد انطلقت هذه الفئة من قيود الأرض ، وجواذبها ، وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على حب البقاء .

وفي مقابل هذا توضح السورة ـ سورة البروج ـ جبلات الجاحدين الجبابرة من الفئة المجرمة الشريرة الآثمة ، وقد جلسوا على النار يشهدون كيف يتعذب المؤمنون ويتألمون ؛ لقد جلسوا يتلهون بمناظر الحياة تأكلها النار ، والكرام من أعظم الأناس وهم يتحولون من الوقود إلى الرماد ! ؛ وترتفع نشوة الجبارين كلما ألقي في النار طفل ، أو عجوز ، أو شيخ ، من الذين آمنوا بالله العزيز الحميد !

أفهكذا ينتهي الأمر ؟!! وتذهب الفئة المؤمنة التي ارتفعت إلى ذروة الإيمان ؟ تذهب مع آلامها الفاجعة في الأخدود ؟ بينما تذهب الفئة الباغية التي ارتكست إلى هذه الحمأة ناجية ؟!

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام ، ومن متاع وحرمان ، ليست هي القيمة الكبرى في الميزان ، وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة ، إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة : **﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾** . وأن السلعة الرائجة في اسواق الله هي سلعة الإيمان **﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟مالكم كيف تحكمون ؟! ﴾** .

وإن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة ، أو الإيمان على الكفر . هكذا يعلمنا القرآن الكريم ويبصرنا بطبيعة القيم ، ومجال المعركة ، وحدود النصر ، وقيمة الموازين .

ثانيا : في مواجهة المال والجاه :

المؤمن الفقير المعتز بإيمانه في مواجهة الغني المستعلي بماله وولده ، المغتر بنعم الله عليه ، فلم يعرف لله حمداً ، ولا لنعمه عليه فضلاً :

إن صاحب الجنتين في سورة « الكهف » نموذج للنفس الخبيثة التي أذهلها الثراء فنسي قوة الله التي تسيطر على الأقدار ، وخادعه شعور كاذب : أن هذه النعمة لاتزول ، وأنه سيملك مقدارهافي الآخرة إذا بعث مرة أخرى .

وفي مواجهة هذه النفس الخبيثة كان الرجل المؤمن الفقير ، المعتز بالإيمان بالله ، الذي رأى في النعمة دليل العظمة للمنعم ، واستحقاقه للحمد والشكر والثناء على أفضاله وآلائه . يرى : أن قول : « أكثر منك مالاً وأعز نفراً » دلالاً وكبرياء بالمال والولد ؛ ويدخلان معاً الجنة جنة الرجل الغني فيقول صاحبها مغتراً : لن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة ! .

وعلى فرض قيام الساعة ، ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ويستمر الغني في ماديته العمياء ، وكأنما يضغط على أعصاب الفقير بكلمات الثراء والجاه والولد ، ويرتب عليها زندقته أو افتراض ثرائه إن كان هناك بعث !.

جدل متهافت ! ورؤ ية بعين سقيمة ! ولكن الرجل المؤمن الفقير لا يعير لجاذبيتة بالمال والولد اعتباراً ، ويبتدىء في تلقين الدرس القاسي .

لكنا هو الله ربي ! ولا أشرك بربي أحداً !!

﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ماشاء الله لاقوة إلا بالله ! ﴾ ويقرر الفقير حالته التي لاعيب فيها ، ولاضعف معها ، فيقول : ﴿ إن ترن أنا أقل منك مالاً وولدا ﴾ .

ومع هذه الحالة الرقيقة ، فإنه مؤمن إيماناً راسخاً عميقاً ، وهو يرجو فضل الله الذي لا يحجر عليه أحد : ﴿ فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ﴾ثم يلفت نظر الكافر لما أنعم الله عليه ـ إلى نوعين من العقاب : ﴿ يرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً ﴾ ﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ، فلن تستطيع له طلباً ﴾ وهو في كلتا الحالتين ضعيف مع كثرة عياله ، لأنه لن يقدر على منع صواعق السماء ، كما أنه لايقدر على إخراج الماء من باطن الأرض ، ويأتي التعقيب مقترنا بالمجادلة لأنها صورة متكررة في الذين مضوا من الأمم ، وعقاب مستمر في الذين لايقولون : الحمد الله .

﴿ وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، وهي خاوية على عروشها ، ويقول : ياليتني لم أشرك بربي أحدا ! ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصراً ﴾ !!!

وهنا فقط : الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير أملاً ، وتبقى للذاتية الإسلامية صدق نبوءتها ، واستعلاء إيمانها فوق الجاه والمال والولد !

يروي الإمام أحمد ـ رضي الله تعالى عنه ـ بإسناد صحيح عن سيدنا جابر ـ رضي الله عنه ـ أن سيدنا عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ . قال : فغضب وقال : « أمتهوكون فيها ياابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده ! لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوه ، أو بباطل فتصدقوه ، والذي نفسي بيده ! لو أن موسى كان حياً ماوسعه إلا أن يتبعني »

ثم يقوم النبي ﷺ خطيباً ليحدد معالم التثقيف للفرد المسلم ، ومصادر تعليمه فيقول : « يأيها الناس ؛ إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصرلي اختصاراً ، وقد أتيتكم بها بيضاء نقية ، فلا تتهوكون ، ولا يغرنكم المتهوكون » . ثم أمر ﷺ بتلك الصحيفة فمحيت حرفاً حرفاً .

وتتكرر الحادثة : نصح النبي ﷺ : فيتضح أن الاستقلال بالدستورية الإسلامية في التفكير والتثقيف أمر واجب .

يروى أن جريراً قال : « جاء أناس من المسلمين بكتب ، كتبوا فيها ماسمعوه من اليهود فقال النبي ﷺ : « كفى ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره »

فجعل ﷺ مجرد الميل إلى وحي آخر لنبي آخر ضلالـة في العرف الإسلامي ، فكيف بالجنوح إلى خارج دائرة الوحي الإلهي ؟ كيف بالجنوح إلى دائرة الفكر البشري ؟ كيف بالجنوح إلى منطق « ماركس » الذي ماقدر الله حق قدره ؟

وتتكرر الحادثة مرة أخرى ـ ثالثة ـ فيتكرر معها نصح النبي ﷺ فتتضح شرعية وجوب الاستقلال للدستورية الإسلامية في التفكير والبحث ، فعن

الإمام الزهري ـ رضي الله عنه ـ: « أن حفصة ـ رضي الله عنها ـ جاءت إلى النبي ﷺ ـ بكتاب من قصص يوسف في كشف فجعلت تقرأه والنبي ﷺ يتلون وجهه ، ثم أعاد عليها ماسبق أن قال للآخرين : « والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتموني ضللتم ، أنا حظكم من النبيين وأنتم حظي من الأمم »

ويستقر الأمر على هذا : على أن الذاتية الإسلامية في البحث منهج واجب ؛ فقد مر الصحابة يوماً على جماعة من اليهود يتلون التوراة ، فتخشع المسلمون ، فعاتبهم الرسول الله ﷺ وتلا :

﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ العنكبوت ٥١



ولقد افتتح الرسول ﷺ هذا المجال التطبيقي في التعبير عن الذاتية الإسلامية سلوكاً : فقد شكا المشركون لأبي طالب من نشاط ابن أخيه ضد عبادة الأصنام ، والدعوة إلى الله الواحد الأحد ، وتكررت الشكوى حتى أشفق أبوطالب على ابن أخيه ، فقال أبوطالب : ياابن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي : كذا ، وكذا ، فأبق علي وعلي نفسك ولاتحملني من الأمر مالا أطيق !

منطق لين بدا منه للنبي ﷺ أنه أي عمه تضعضع ، فقالها النبي ﷺ معلناً بها الذاتية الإسلامية في مواجهة الجاذبية الاجتماعية ، ويومها كانت الدعوة في أيامها الأولى ، فقال : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » !

أنها لقاعدة توزن بالحياة كلها ، إن تكأكأ المجتمع كله على المسلم الداعية فهو يساوي في ثقله العالم كله ، ويكون العالم في حجمه الكبير أخف من ريشة طير صغير ، ولقد أحس أبو طالب بنفحة من هذاالنور ، المتوهج من مقالة النبي ﷺ فقال : اذهب يا ابن أخي ، فقل ماأحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً .

وبلال بن رباح كان عبداً مملوكاً لأمية بن خلف ، وكان رجلاً وجيهاً في قريش أسود القلب ، غليظ المشاعر ، دفعته مشاعره المتعجرفة إلى أن يعذب بلالاً ، لأنه آمن بالله وبرسوله محمد ﷺ .

قال في المواهب اللدنية : وإن بلالاً هانت نفسه عليه في الله ـ عز وجل ـ فلم يبال بتعذيبهم وصبر على أذاهم ! ، ولقد كان يردد في أسماع الزمان ، وآفاق مكة المكرمة وهو يجر على رمضاء الجبال في اليوم الشديد الحر : أحد . أحد . فرد . صمد . لاشريك له ، ولا ولد .

لقد كان يستطيع أن يؤمن بقلبه ولا ينطق بلسانه ، وقد اعتذر القرآن فيما بعد لمثل هذه الحالة ، فقال الله تعالى : ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان** ﴾ النحل

ولكن الأمر هنا يختلف ، فإنه أمر مواجهة الفكر البشري بالذاتية الإسلامية التي رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وفهمت فى العبودية معنى آخر غير الشعائر التي تؤدي في حيز فردي ضيق ، بل العبودية : هي أن يعمل المسلم لكي يعبد المخلوقون جميعاً الله رب العالمين .

لقد كان بلال يعتقد أن الإسلام هو عبودية الناس جميعاً لله وحده بتلقيهم عقائدهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموزينهم من الله ورسوله فحسب .

ومن هنا أعلنها وهو عبد رفيق ضعيف : أحد : أحد ! لاشريك له ولا ولد ، لعل سيده الحر القوي يعلم أنه أضعف في فطرته من إيمان عبده ، الذي أسلم لله رب العالمين ، وكان بلال ـ رضي الله عنه ـ له رفيف في الجنة لأنه أعلن عن الذاتية الإسلامية في مواجهة الطغاة من أكابر قريش ، دون خشية ، بعد الإيمان بالله ورسوله الخاتم

● وكان ربعى بن عامر مع رستم على هذه الوتيرة فقد أرسله سعد بن أبي وقاص رسولاً إلى رستم ـ قائد الجيوش الفارسية ـ فدخل عليه ، وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير ، وأظهر اليواقيت واللائى الثمينة العظيمة ، وعلن تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعي بثيابه وترسه وفرسه القصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ، وبيضته على رأسه ، فقالوا له : ضع سلاحك ، فقال : إني لم آتكم ، وإنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا ، وإلا رجعت .

فقال رستم : إئذنوا له ، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق ، لخرق عامتها ، فقال له رستم : ماجاء بكم ؟

فقال : الله ابتعثنا لنخرج من نشاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

لم يكن للقوة المادية التي ظهر بها رستم أدني أثر في نفسية ربعي ، لأنه ـ أي ربعي ـ كان إيمانه أكبر من قيم هذه الأرض .

ولم تهتز قيم الإيمان في نفسه عندما أريد منه أن يخضع لنظام رستم فرفضه في إباء وأدب ، ولما كلم رستم عرض عليه الإسلام في طبيعته ، غير هياب ولا

متضعضع ؛ فقد كانت الذاتية الإسلامية هي شخصية ربعي ، كما كانت هي الطابع لكل الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً

● وتظهر أحداث التاريخ طبيعة الذاتية الإسلامية ومداها ، فقد روى أن عبد الله ابن أبي بن سلول قال يوماً : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » فرد عليه زيد بن الأرقم قائلاً : أنت والله الذليل القليل المبغضة في قومك ! وعلم النبي ﷺ بالحادثة فأرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ في طلبه ، فلما مثل بين يديه أنكر مقالته ، وكان عبد الله بن أبي رجلاً شريفاً في قومه ـ ففشت الملامة في الأنصار لزيد وكذبوه ، فأنزل الله الآية ، وبلغ ولده عبد الله بن عبد الله بن أبّي بن سلول ما كان من أمر أبيه فأتي النبي ﷺ فقال : « إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي لما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما بها رجل أبر بوالديه منى ، وأنا أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعنى نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبّي يمشي في الناس ، فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . . فقال رسول ﷺ : بل نحسن صحبته مابقي معنا » .

وتبقى الذاتية الإسلامية بعد هذا الموقف العملي السلوكي دستوراً في اللقاء بين الابن المسلم والوالد الكافر .

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لايهدي القوم الفاسقين ﴾ ٣٤ ـ التوبة

وهكذا تعلو الذاتية الإسلامية فوق قيم الأرض كلها .

● وفي قصة ثعلبة كمال لمفهوم الذاتية الإسلامية في حدود تطبيقها . . فقد روى أن ثعلبة بن حاطب أتى رسول الله ﷺ فقال :

« يارسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً ، فقال رسول الله ﷺ : ويحك ياثعلبة ! قليل تؤدي شكره خير من كثير لاتطيقه ، ثم قال مرة أخرى : أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ؟! فوالذي نفسي بيده لوشئت أن تسيل معي الجبال فضة وذهباً لسالت ، فقال ثعلبة : والذي بعثك بالحق نبياً لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأوتين كل ذي حق حقه ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم ارزق ثعلبة مالاً ، فاتخذ غنمًا فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحىّ عنها ونزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر في جماعة ، ويترك ماسواهما ، ثم نمت وكثرت ، حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهي تنمو كما ينمو الدود ، حتى ترك الجمعة ، فسأل رسول الله ﷺ فقال : مافعل ثعلبة ؟ فقالوا اتخذ غنمًا وضاقت عليه المدينة ، واخبروه بخبره ، فقال ياويح ثعلبة !ـ ثلاثاً ـ وأنزل الله عز وجل : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ وانزل فرائض الصدقة ، فبعث : رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة : رجلاً من جهنية ، ورجلاً من بني سليم ، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة ، وقال لهما : مرا بثعلبة وبفلان ـ رجل من بني سليم ـ فخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال ثعلبة : ما هذه إلا جزية ! ما هذه إلا أخت الجزية ! ما أدرى ما هذا ؟! انطلقا حتى تفرغا ، ثم تعودا إلّي ، فانطلقا ، وأخبرا السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله ، فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهم بها ، فلما رأوها قالوا : مايجب عليك هذا ، ومانريد أن نأخذ هذا منك . قال : بلى . خذوه فإن نفسى بذلك طيبة ، وإنما هي إبلي . فأخذوها منه ، فلما فرغا من صدقتهما رجعا حتى مرا بثعلبة فقال : أروني كتابكما [حتى] أنظر فيه ، فقال : ماهذا إلا أخت الجزية ! انطلقا حتى أري رأيى ، فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال : ياويح ثعلبة ، قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمى بالبركة ، وأخبروه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمى ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن**

آتانا من فضله لنصدقن ﴾ إلى قوله : ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ذلك ، فخرج حتى أتى ثعلبة ، فقال : ويحك يا ثعلبة ! قد أنزل الله فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ﷺ ، فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : « إن الله قد منعنى أن أقبل (منك) صدقتك ، فجعل يحثو التراب على رأسه ، فقال رسول الله ﷺ هذا عملك ! قد أمرتك فلم تطعني ، فلما أبى أن يقبل منه شيئاً ، رجع إلى منزله ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يقْبل منه شيئاً .

ثم أتى أبابكر رضى الله عنه ـ حين استخلف ، فقال : قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار ، فاقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ وأنا أقبلها ؟! فقبض أبوبكر وأبى أن يقبضها !

فلما ولى عمر بن الخطاب أتاه فقال : ياأمير المؤمنين ، اقبل صدقتى ! فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبوبكر ، وأنا أقبلها منك . . ؟ فلم يقبلها وقبض عمر

ثم ولى عثمان فأتاه فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : رسول الله ﷺ لم يقبلها ، ولا أبو بكر ولا عمر ، وأنا أقبلها (منك) ؟ فلم يقبلها عثمان ، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان .

هكذا طردت الذاتية الإسلامية ثعلبة الذي تأول فى الحكم الشرعي ، وتردد ، ونظر ، ويسّر ، وأدبر !

وهكذا أكد الخلفاء الراشدون أنه من أطاع الرسول فقد أطاع الله ، ومن عصا الله ورسوله فقد غوى ولاتوبة له !!!

وكم من مجازف في العصر الحديث يريد أن يسخر من العلماء فيفعل فعل ثعلبة ، فيرد نصوص القرآن بدعوى أنها معطلة ، ثم يريد أن يطلق عليه اسم

الإسلام ، كأنما المسألة ألقاب تعطى وأسماء تكتب فى (شهادات الميلاد) إن الذاتية الإسلامية ترفض :

* منهج الاعتراف بأن الإسلام متهم يريد من يدافع عنه .

كما ترفض منهج التجديد فى الاسلام ، فقد تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لامبدل لكلماته .

* وترفض منهج تمييع التشريع الاسلامي باسم : أن الاسلام لايرفض التقدم .

* وترفض أن يخضع المسلمون لغير كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ .

* وترفض دعوى فصل القرآن عن السياسة والاقتصاد والإدارة والحكم وشئون المجتمع .

* والذاتية الإسلامية هى حجر الأساس في :

* أن يعود للأمة العربية حضارتها الرائدة .

* وأن يعود للإسلام شموخه وانتشاره .

* وأن تأتي الدنيا راكعة لخير أمة أخرجت للناس ، فلقد جربت الذاتية الإسلامية نفسها مع رستم فهزمته في موقعة «القادسية» وجربت الذاتية نفسها مع الصليبين فحطمت أسطورتهم فى «حطين» على يد صلاح الدين الأيوبي ، وعرفت الذاتية الإسلامية نفسها مع التتار فدحضتهم فى « عين جالوت » على يد الملك قطز .

وتسنطيع الذاتية الإسلامية أن تعلب دوراً مهمًا في الحياة الحاضرة فى :

□ بناء استراتيجية ديبلوماسية موحدة ، تتبعها الدول الإسلامية في المحافل العالمية .

□ بنا اقتصاد إسلامي للدول الإسلامية .

□ وتوحيد مناهج التربية والتعليم في الوطن الإسلامي .

□ وبناء جيش إسلامي موحد .

□ وتأسيس قضاء إسلامي للوطن الإسلامي كله ، تتم به الطمأنينة والأمن والعدل السليم .

□ وإعداد جيل واع يقود الحياة إلى التى هي أقوم .

فقد عرفت الأندلس ، وصقلية ، وقبرص ، والقوقاز ، ودول البلقان ، وجنوب شرقي آسيا ، عظمة الحضارة الإسلامية في : لقاء الإنسان بربه ، لقاء الإنسان مع أخيه الإنسان في تعاون ، وأمن لاتزعزعه صراعات ، وتقدم ينمو بفعل الصالحات ، وعلم أزهر ألدنيا بخيراته ، وحركة الحياة تغدو وتروح ، والكون معطر بالمودة بين الناس ، وسماء الحياة صافية من الأكدار ، والقلوب عامرة بالمودة والحب ، وجماعات الناس تتبادل الأنس والمعروف .

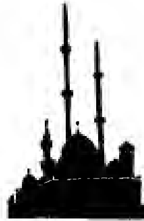
● وبهذه الذاتية فقط يصد الزحف الأحمر عن أمتنا الإسلامية ، فإن الشيطان الذي سكن في قلوبهم يرتعد عن سماع هذه الذاتية ، فترتد فثاتهم المتعجرفة على أدبارها ، كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة فإن جند الله ينصرون بالرعب ، ولهم من الله وعد .

﴿ إنا لننصر رسلنا ، والذين آمنوا ، في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . . . ﴾

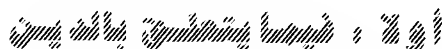
بهذه الذاتية الإسلامية يجب على كل مسلم أن يواجه الغزو الفكري المضلل ، والإلحاد المزيف الذي يلبس ثوب النفاق مدعياً الإسلام ، فقد علّمنا القرآن أن المنافقين يقولون : **﴿ . نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . . ﴾**

فأنّى لهم الوصول إلى تضليل الذاتية الإسلامية ؟ والله قد وصفهم في القرآن الكريم : ﴿ ولتعرفنهم في لحن القول . . ﴾

وإذا بدت البغضاء من الأفواه ؛ فإن ماتخفيه القلوب أكبر ، والله من ورائهم محيط . إن شاء الله !



الذاتية الاسلامية ترفض الالحاد الشيوعي



نلخص موقف الشيوعية من الدين في النقاط التالية :

- موقف الشيوعية من الدين نصوصاً من مصادرها .
- موقف الشيوعية من الدين نصوصاً من تشريعاتها .
- موقف الشيوعية من الدين نصوصاً من أقوال كبارها .
- موقف الشيوعية من الدين نصوصاً من دائرة المعارف السوفياتية .

أ - كما في المانيفستو (البيان الشيوعي) :

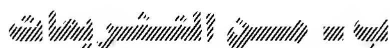
- قد يقولون : نعم إن الأفكار الدينية والأخلاقية والفلسفية والسياسية والحقوقية ، وما إليها ، قد طرأ عليها التعديل خلال التطور التاريخي ، ولكن الدين والأخلاق والفلسفة والسياسة ، والحقوق ، كانت مع ذلك تحافظ دائما على بقائها خلال هذا التحول المستمر .

وهنالك فوق ذلك حقائق أبدية : مثل الحرية ، العدالة . . الخ وهي واحدة ، مشتركة في جميع مراحل التطور الإجتماعي ؛ أما الشيوعية فهي تلغي الحقائق الأبدية ، تلغى الدين والأخلاق ، عوضا عن تجديدهما ، فهي تناقض إذن كل التطور التاريخي السابق .

- إن الثورة الشيوعية تقطع من الأساس كل رابطة مع علاقات الملكية التقليدية ، فلاعجب إذن . . إن هى قطعت بحزم أثناء تطورها كل رابطة مع الأفكار والآراء التقليدية .

● وكما كان الكاهن والأقطاعي يسيران دوماً يداً بيد ، كذلك تسير الاشتراكية الكهنوتية جنباً لجنب مع الاشتراكية الإقطاعية ، وليس أسهل من أن يطلي النسك والزهد المسيحي بطلاء من الاشتراكية ، أفلم تدع المسيحية أيضا ضد الملكية الخاصة ، والزواج ، والدولة ؟.. ألم تبشر عوضاً عنها بالمحبة ، والإحسان ، والأسمال الرثة ، والتبتل ، وقتل الجسد ، والتقشف ، والرهبانية والكنيسة ؟ إن الإشتراكية المسيحية ليست سوى الماء المقدس الذي يسكبه الكاهن على نار الغيظ المتأججة بين جوانح الارستقراطية .

● ومعروف كيف أخذ الرهبان مخطوطات المؤلفات الكلاسيكية في العهد الوثني القديم ، وغطوها بخرافات وأساطير سخيفة عن القديسين الكاثوليك .



لذلك كان من الطبيعي أن تصدر الثورة والشيوعية مرسومها في ٢٣ يناير سنة ١٩١٨ الذي نص فيه على فصل الكنيسة عن الدولة ، وفصل المدرسة عن الكنيسة ، وملخص المرسوم :

١ ـ الكنيسة منفصلة عند الدولة :

٢ ـ محظور إصدار أي قانون محلي أو لوائح في أراضى الجمهورية يكون من شأنها عرقلة أو تقييد الضمير ، أو إيجاد أيّة امتيازات على أساس معتقدات المواطنين الدينية .

٣ ـ لكل مواطن أن يعتنق أي دين أولا يعتنق أي دين على الإطلاق .

٤ ـ لن تجري أية مراسيم ، أو احتفالات دينية ، فى أي عمل من أعمال الدولة ، أو في أي احتفال رسمي عام أو اجتماعي .

٥ - حرية القيام بالطقوس الدينية مكفولة إلى الحد الذي لاتؤدي فيه إلى اضطراب النظام العام ، وإذا كانت مصحوبة بالتعدي على حقوق المواطنين في الجمهورية السوفياتية ، وللسلطات المحلية الحق في اتخاذ جميع التدابير اللازمة في هذه الأغراض لضمان المحافظة على النظام العام والأمن .

٦ - لايستخدم أحد معتقداته الدينية كعذر للتنصل من واجباته المدنيّة .

٧ - يلغى عمل قسم أو عهد ديني ، وفي الأحوال الضرورية يكتفى فقط بالوعد الصادق .

٨ - تقوم السلطات المدنيّة وحدها - بجميع أعمال التسجيل المدني ، عن طريق مكاتب تسجيل الزواج والميلاد .

٩ - المدرسة مفصولة عن الكنيسة ، وتعليم الدين محظور في جميع المدارس العامة ، والخاصة .

● ثم صدر تعديل لبعض هذه المواد في عام ١٩٢٥ بما يكفل تجميع المادة الخامسة على النحو التالي :

[ضماناً لحرية الضمير لدى العمال تعد الكنيسة منفصلة عن الحكومة ، والمدارس منفصلة عن الكنيسة . . ولكن حرية الدعاية الدينية واللادينية مكفولة للجميع]

● ثم حدث تعديل لهذه العبارة بعد ذلك . . نصّة :

[حرية إقامة الشعائر . . وحرية الدعاية اللادينية مكفولتان لجميع المواطنين]

● ثم استقر النص الدستوري فى عهد ستالين عام ١٩٣٦ على ما جاء فى المادة رقم ١٢٤ من الدستور الحالي :

« لكي يستمتع المواطنون بحرية الضمير : تفصل الكنيسة فى الأتحاد السوفيتي عن الدولة . والمدرسة عن الكنيسة ، ويكفل لجميع المواطنين حرية العبادة الدينية ، كما تكفل لهم حرية الدعوة ضد الدين .

● ولكننا إذا رجعنا إلى قوانين الاتحاد السوفياتي نجد أن المادة (١٢٢) من قانون الجنايات : تحرم تلقين الاطفال العقائد الدينية ، سواء في مدارس الحكومة ، أو المدارس الخاصة .

● وتنص المادة (٥٨) على أن التدين معاد للثورة الشيوعية ، وتبيح لرجال الشرطة في شتى الظروف السياسية أن يقتحموا بيوت المتعبدين ، ويتولوا أمرهم بطريقتهم الخاصة ، وذلك بناء على قانون صدر في عام ١٩٣٢ سمى « قانون الهيئات الدينية » جاء فيه : « فى أول أيار عام ١٩٣٧ لن يبقى فى كافة البلاد مكان للعبادة ، ويجب القضاء على فكرة الإله ، التى هي من بقايا القرون الوسطى المظلمة »

● وفى عام ١٩٣٩ صدر قانون : يمنع الاجتماعات الدينية ، كما يحرم على الهيئات والأفراد الاحتفاظ بأي نوع من الكتب الدينية .

جـ ـ أقوال كبار الشيوعية ضد الدين

قال ماركس : « رسالة الطبقة العاملة القضاء على الدين والمتدينين والداعين إليه .

إن امتداد إنكار وجود الله إلى دراسة الحياة الاجتماعية يكسبنا نتائج هامة ، إذ يفسر المجتمع ، ويرد الحوادث إلى أسبابها المادية ، البعيدة عما يسميه الجهلاء الارادة الالٰهية أو الإ له !!

إن الدين أفيون الفقراء « إن القوانين والقواعد الأخلاقية والدين ليست سوى أوهام » !!

وقال إنجلز : « لامكان لوجود الله » !

وقال هوبز : « لاوجود لله » !

وقال لينين : « كلما تحررنا من نفوذ الدين ازددنا اقتراباً من الواقع الاشتراكي ؛ ولهذا يجب علينا أن نحرر عقولنا من خرافة الدين » (قالها عام ١٩٠٢) « الدين أفيون الشعوب ، فالدين ورجل الدين . يخدران أعصاب المظلومين والفقراء ، ويجعلانهم يرضخون للظلم » !!

« لماذا لانعلن فى برنامجنا الإلحاد ؟ إننا نفعل ذلك لكي لانزود خصومنا بسلاح يهاجموننا به ، فعدد المؤمنين بالله لايزال يفوق عدد الملحدين ! » قالها عام ١٩٠٥ » .

إننا نقوم بالدعوة ضد الدين الآن لأننا أقوى من أن ينال خصومنا منا ، عن طريق التشهير بإلحادنا ، ولقد كنا نحرص فى الماضي على عدم إعلان إلحادنا لأننا لم نكن أقوياء ، أما الآن فإننا نعلن بصراحة :

أننا ملحدون ، وأننا نرى فى الأديان خطراً على الحضارة الإنسانية ، « فاالأديان أفيون مخدر » !! قالها عام ١٩٢٧م .

« ليس صحيحاً أن الله هو الذي ينظم الأكوان ، وإنما الصحيح . . هو أن الله فكرة خرافية ، اختلقها الانسان ليبرر عجزه ، ولهذا فإن كل شخص يدافع عن فكرة الله إنما هو شخص جاهل عاجز » !! قالها عام ١٩١٣ .

« الماركسية هى المادية وهى من ثم معادية للدين » .

وأرسل « لينين » إلى الكاتب الروسي « ماكسيم جوركي » خطاباً قال فيه :

« إن البحث عن الله لا فائدة منه ، ومن العبث البحث عن شىء لم يخبأ ، وبدون أن تزرع لا تستطيع أن تحصد ، وليس لك إله لأنك لم تخلقه بعد ، والآلهة لايبحث عنها وإنما تخلق » !!

الإلحاد جزء طبيعي من الماركسية لا ينفصل عنها » .

وقال ستالين :

نحن ملحدون ، ونحن نؤمن بأن فكره الله خرافة ، ونحن نؤمن بأن الإيمان بالدين يعرقل تقدمنا ، ونحن لانريد أن نجعل الدين مسيطراً علينا ، لأننا لانريد أن نكون سكارى » ! (قالها عام ١٩٤٤) .

● مادمنا ننكر الأديان فإننا لانستطيع أن نأخذ بالآراء القائلة بأن للأسرة قداسة » !!

وقال مولوتوف

« لن تنتشر الشيوعية فى الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التي يعبدونها في الحجاز ، وإلا إذا قضينا على الإسلام » !

قال أحمد بهاء الدين :

« إن الشيوعي يرفض وجود الله ، ويحارب العاطفة الدينية » !! (الرسالة العدد ٨٨ لسنة ١٩٦٥)

قال هارولد لاسكي :

« ومن الواجب إعداد عقول الناس لتقبل العلاقات الاجتماعية الجديدة ، وإذا وجدت الجماهير أن من الصعب عليها أن تقيم مجتمعاً شيوعياً ، فالسبب فى ذلك راجع إلى أن هذه الجماهير مازالت تجد نفسها في الكثير من آفاق الحياة الفكرية قد ثبتت جذورها في أرض المجتمع البورجوازي . . .

وبالاختصار سصبح التعليم جهازاً من أجهزة الدعاية للتجديد الشيوعي للمجتمع ، وتسير مع هذا المجهود التعليمي جنباً إلى جنب حملة تستهدف الخرافات البورجوازية عن الدين ، ويعترف الشيوعي أن من الضروري هنا

وفي هذا الميدان السير بحذر ، إذ أن سلطان الدين كان عظيمًا بين العمال أيضاً ، ولكن تعبير « ماركس » المشهور بأن الدين هو أفيون الشعوب يحدد مزاج الأهداف الشيوعية فالدين والشيوعية شيئان متعارضان !!

وقالت مجلة الشباب السوفياتية فى عددها الصادر في ١٨ أكتوبر ١٩٤٧ : « نحن لا نستطيع أن نقف من الدين موقفاً محايداً ».

وقالت « البرافدا» الشيوعية فى عددها الصادر في ٢٦ إبريل سنة ١٩٤٩ : « نحن نؤمن بثلاثة أشياء : كارل ماركس . . لينين . . وستالين . ولانؤمن بثلاثة أشياء : الله ، الدين ، الملكية الخاصة » .

ولم يترك الأمر بعد هذا النشاط الهائل فى حرب الدين ، فإن الشيوعية قد اتخذت موقف العداء المستمر : إنها هي الشيطان الذي يبغض الايمان والمؤمنين ، ولهذا فقد عقد فى موسكو مؤتمراً لدراسة المسائل المتعلقة بالالحاد العلمي ، نظمته جمعية « نشر المعرفة السياسية والعلمية » لعموم الاتحاد السوفياتي في شهر مايو سنة١٩٥٧ .

وفي هذا المؤتمر جدد المؤتمرون الحملة ضد الدين .



مهمة « دائرة المعارف » فى أية لغة أو فن ، هي تقديم الحقائق العلمية من مصادرها الموثوق فيها دون تحيز أو حكم على شيء .

---

١ ـ الشيوعية/ هارولد لاسكي ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

٢ ـ القلق الانساني / د . محمد إبراهيم الفيومى ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

ولكن « دائرة المعارف الروسية » تخالف المنهج العلمي وتعرض الإسلام والقرآن ونبى الإسلام ــ عليه الصلاة والسلام ـ من وجهة نظرها الماركسية ، فتقول عن الإسلام في المجلد ١٨ ص ٥١٦ ـ ٥١٩ من الطبعة الثانية :

« ولقد لعب الإسلام شأنه شأن سائر الاديان ، إذ أصبح أداة في أيدي الطبقات المستغلة دوراً لكبح الطبقة العاملة روحياً ، وقد نشأ الإسلام نتيجة لنمو مجتمع طبقى بين العرب .

وقد تأثر تكوين الإسلام إلى حد كبير بالمفاهيم الدينية البدائية لقبائل العرب ، كما تأثر بالمسيحية واليهودية والمجوسية ، فقد صورت العبودية وعدم المساواة الاقتصادية في السور المكية بالقرآن ، على أنها ظواهر من صنع الله نفسه ، وأنها لهذا لايمكن تبديلها ، والرأي الذي يبديه بعض المدافعين عن الإسلام حول « شيوعية » الإسلام الأصلي ، وزعيمهم ، أن محمداً الذي يُعتبر مؤسس الإسلام ، كان ثائراً ومصلحاً اجتماعياً مهما ، إنما يهدف إلى إخفاء حقيقة الاسلام .

وليس أدل على هذا التزييف من أن القرآن يدافع عن العبودية في إصرار »

وتقول عن القرآن الكريم فى المجلد رقم ١٢ ص ٥٦٤ :

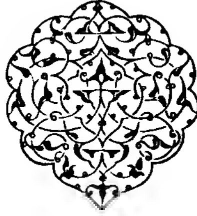
« القرآن الكتاب المقدس الأساسى للمسلمين : مجموعة من المواد الدينية المذهبية والأسطورية والقانونية ، وقد وضع القرآن وشرع خلال حكم ثالث الخلفاء العرب عثمان (٦٤٤ ـ ٦٥٦) ثم أدخلت عليه فيما بعد بعض التغييرات . . . إلخ . »

ذلك هو موقف الشيوعية :

نصوصاً من إنجيلها المانيفستو ، وتشريعاتها . وكلام كبارها ومجلاتها وأصدقائها . ودائرة معارفهم العلمية .

وهو موقف سافر في اتخاذ موقف عدائي مستمر نحو الدين ، والدين الذي عاصر هذا التحدى الشيوعي كما جاء فى المانيفستو هو دين أوروبا .

لقد رفضته الماركسية وأعلنت عليه الثورة ، كما رفضت قيادته للعمل الاشتراكي ، ثم ناصبت الشيوعية قياساً على هذا العداء كل دين سماوي أو غير سماوي ، لأنها تعلن الإلحاد وتدعو إليه وتعمل من أجل أن ينتشر .



موقف الذاتية الاسلامية في المواجهة



أولاً: الإسلام منهج ، والعقيدة أساس

إن الاسلام منهج حياة ، يشمل التصور الاعتقادي ، الذي يفسر طبيعة الوجود ، ويحدد مكان الإنسان فى هذا الوجود ؛ كما يحدد غاية وجوده الإنساني ، وهوكذلك يشمل النظم التى تنبثق من ذلك التصور الاعتقادي ، وتستند إليه ، وتجعل له صورة واقعية ، متمثلة فى حياة البشر من ذلك النظام الأخلاقي ، والينبوع الذي ينبثق منه ، والأسس التي يقوم عليها ، والسلطة التى يستخدمها ؛ والنظام السياسي وشكله وخصائصه والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته ؛ والنظام الاقتصادي وفلسفته وتشكيلاته ، والنظام الدولي وعلاقاته وارتباطاته .

والإسلام كمنهج للحياة ليس مجرد عقيدة وجدانية ، منعزلة عن واقع الحياة البشرية فى كل مجالاتها الواقعية ، وليس مجرد شعائر تعبّدية يؤديها المؤمنون فرادى ، أو جماعات ؛ وليس مجرد طريق إلى الآخرة ؛ لتحقيق الفردوس الأخروى ، فى حين يكون هناك طريق آخر غيره لتحقيق الفردوس فى الدنيا ، بل هو منهج متكامل للفردوس في الدنيا والفردوس فى الآخرة ، والطريق الموصل بينهما هو عمل المؤمنين ، ولقد جاء هذا الدين لتكريم الإنسان ، ولن تتحقق للإنسان هذه الكرامة حتى يحقق عبوديته لله[1] ، وهي عبودية تشمل الانسان ضمن الكون . يقول الله تعالى : ﴿ **أفغير دين الله يبغون ؟ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وإليه يرجعون** ﴾ ٨٣ ـ آل عمران .

---

١ ـ راجع المستقبل لهذا الدين . ص ٥ ـ ٧ .

فالعبودية لله وحده هى شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية ، التى تتمثل فى شهادة التوحيد : أشهد أن لاإلهٰ إلا الله ، والتلقى عن رسول الله ﷺ في كيفية تحقيق هذه العبودية هو شطره الثاني المتمثل في شهادة التوحيد كذلك : وأشهد أن محمداً رسول الله .

والقلب المؤمن ، المسلم ، التقي الواعي ، المخلص في العبودية لله وحده ، هو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها : أشهد ألاإلهٰ إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله

فإن كل مابعدها من مقومات الإيمان ، وأركان الإسلام ، من العبادات والمعاملات راجع إليها ، إذا أنها كلها تقوم على أساس العبودية لله، ومن ثم تصبح شهادة التوحيد قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه الحياة بحذافيرها .

فقبل أن تقوم هذه القاعدة لاتقوم قومة لأمة مسلمة ، ومن ثم فقد استغرق بناء قاعدة العبودية زمناً طويلاً ، وشرحاً مستفيضاً .

فلقد بيّن القرآن الكريم أن الله ــ عز وجل ـ أخذ من ظهور بني آدم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالو : بلى شهدنا !!

فهي قضية الفطرة والعقيدة يعرضها القرآن الكريم فى صورة مشهد فريد ! إنه مشهد الذرية المكنونة فى عالم الغيب السحيق ، وتؤخذ فى قبضة الخالق المربي فيسألها : ألست بربكم ؟ فتعترف له سبحانه بالربوبية ، وتقر له سبحانه بالعبودية وتشهد له سبحانه بالوحدانية ، وهى في عالم منثور كالذر ، وهى كذلك مجموعة في قبضة الرحمن الخالق العظيم .

---

١ ـ بتصرف ـ عن تفسير في ظلال القرآن جـ ٩ ص ٦٧٠ .

إنه لمشهد رائع باهر لاتعرف اللغة له نظيراً فى تصوراتهاالمأثورة ، وإنه لمشهد عجيب فريد حين يتملاه الخيال البشري جهد طاقته ، وحينما يتصور تلك الخلايا التى لا تحصى - عند الانسان - وهى تجمع وتقبض وهى تخاطب خطاب العقلاء ، بماركبه الله فيها من الخصائص المستكنة ، وهي تستجيب استجابة العقلاء ، بما هيء فيها من الفطرة ، فتعترف وتشهد أن الله واحد ، ويؤخذ عليها الميثاق وهي ماتزال في الأصلاب .

وإن الكيان الإنساني ليرتعش من أعماقه ، وهو يتملّى هذا المشهد الرائع الباهر ، الفذ الفريد ، لتلك الحقيقة الهائلة العميقة ، المستكنة في أعماق الفطرة الإنسانية ، التى تسبق العلم الحديث بأربعة عشر قرناً ، ثم يأتي العلم من بعدها ليكرر أن : الناسلات : وهى خلايا الوراثة التى تحفظ سجل الانسان ، وتكمن فيها خصائص الأفراد ، وهم بعد خلايا فى الأصلاب . . إن هذه الناسلات التى تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر ،وتكمن فيها خصائصهم كلها ، لايزيد حجمها عن سنتميتر معكب ، أو مايساوي ملء قمع من أقماع الخياطة « كستبان » !

وفى الحديث الشريف عن ابن عباس - رضى الله عنهما -: « مسح ربك ظهر آدم فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فأخذ مواثيقهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى » وفي مسلم ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :« كل مولود يولد على الفطرة ؛ فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، . . . كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء »

وفى مسلم كذلك : قال رسول الله ﷺ : يقول الله « إني خلقت عبادي ضعفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ماأحللت لهم »

وإذن . . فحقيقة التوحيد في فطرة الإنسان مركوزة فيه ، كما أنها مركوزة فى فطرة هذا الوجود من حوله ، فما الفطرة الإنسانية إلا قطاع من فطرة هذا الوجود كله .

وأخذ الله هذا الميثاق على بنى اسرائيل ألا يعبدوا إلا الله قال عز وجل : **﴿ وإذا أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسناً ، وأقيموا الصلاة ، وآتو ا الزكاة ، ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون ﴾** ٨٣ البقرة .

لقد نص ميثاق الله معهم ألا يعبدوا إلا الله ، وتلك هي القاعدة الرئيسية للعبودية ، إنها في توحيد الله ، كما تضمن الميثاق عليهم بعد ذلك الإحسان إلى الوالدين ، وخطاب الناس بالحسنى ، ولكنهم عطلوا الميثاق ، فجدد الله معهم الميثاق مرة أخرى يقول الله تعالى : **﴿ وإذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا مافيه لعلكم تتقون ﴾** ١٧١ ـ الأعراف .

فهو ميثاق لاينسى ، لأنه أخذ فى ظروف حدث خطير لاينسى أبداً ، لقد أخذ الله عليهم الميثاق ، وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة ، حتى ظنوا أنه واقع بهم ، فى هذه الظروف الحرجة الضيقة أعطوا ميثاقهم لله ، وكانت خارقة للعادة ! جديرة بأن تجعلهم لاينتكسون ولايتقاعسون ، ولكن اسرائيل هي اسرائيل عدو الله ، والعهد ، والميثاق ! .

ومن قبل ذلك . . أخذ سيدنا إبراهيم يعلم أنبياء بنى اسرائيل الشطر الأساسى فى الدين ، وهو الإيمان بالله . يقول الله تعالى : **﴿ ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب : يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتّن إلا وأنتم مسلمون . ﴾** ١٣٢ ـ البقرة .

وكذلك سيدنا يعقوب عليه السلام : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذا قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك : إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، إلٰهاً واحداً ، ونحن له مسلمون ﴾ ١٣٣ ـ البقرة .

وقد أمر الله جماعة المسلمين جميعاً أن يعلنوا التوحيد لجلاله قال تعالى : ﴿ قولوا : آمنا بالله ، وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم ،وإسماعيل ،وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وما أوتى موسى ، وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ١٣٦ ـ البقرة .

فتلك هي القاعدة الأساسية للدين ، وهى تلك الوحدة الجامعة الكبرى بين الرسالات جميعاً ، وهي قاعدة التصور الإسلامي ، التى تجعل من الأمة المسلمة : الأمة الوارثة لتراث العقيدة ، القائمة على دين الله فى الأرض ، وتجعلها موصولة بهذا الأصل العريق ، السائر فى درب الهدى والنور .

تلك هى العقيدة التى تجعل من النظام الإسلامي نظاماً عالمياً ، يملك الجميع فى ظله الحياة آمنة ، رضيةً ، هنيئة ، سعيدة ، دون تعصب ، أو شقاء ، أو ظلم ، أو اضطهاد .

ولذا فإن الله يأمر خاتم الأنبياء والمرسلين بإعلان هذه الحقيقة : ﴿ قل : آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يُقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ ٨٤ ـ ٨٥ آل عمران .

إن دين الله واحد ، جاءت به الرسل جميعاً ، وعهد الله واحد ، أخذ على كل رسول ، وهو الإيمان بالله ، وبرسله ، ونصرة منهجه على كل منهج بشري ، يعاند منهج الله ، وذلك هو الوفاء بالعهد لله !

والإسلام هو ناموس هذا الوجود ، الذي أسلم لله كل من في السموٰات والأرض طوعاً وكرهاً ، فهي الصورة الشاملة لاستسلام الكون ، إنها صورة كونية تأخذ بالمشاعر ، وترتجف لها الضمائر ، وتستقبلها الوجدانات بالأنس والراحة ، والثقة ، والإطمئنان ، فالفطرة البشرية ، متناسقة مع ناموس الكون ، مسلمة لربها ، تحب أن تعيش فى إطار الكون ، وأن تتعامل معه ، فى تناسق بين نظامه وشعوره ، ولاتحب أن تصطدم مع مايغير فطرتها ؛ لأنها لاتحب أن تظمأ وتعرى وتشقى !

هذا الإسلام فى شموله وسعته لكل الرسالات قبله ، وفي ولائه لكافة الرسل من ذلك الموكب الأمين ، الذي حمل شهادة التوحيد الخالص لله ، هو رسالة محمد بن عبد الله ﷺ إنها توحيد الله ، والاعتراف لجلاله ، وتوحيد الاتجاه إلى جنابه المقدس ، وهي التقيد بالتبعية لما جاء به من الحق سيدنا محمد ﷺ واتباع الشريعة التى أرسله بها رب العالمين ، والرضا بالتحاكم إلى الكتاب ، الذي حمله إلى العباد من ربهم العزيز الحكيم ، فمن لم يرتض هذا الدين فقد خرج من إطار الفطرة ، وأغرق نفسه مع الطواغيث . يقول الله تعالى : **﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون : أنهم آمنو بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك . يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ! وقد أمروا أن يكفروا به ! ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا ! وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول . رأيت المنافقين يصدّون عنك صدودا ﴾ ٦٠ ـ ٦١** النساء .

ويرتضى الله ـ جل شأنه ـ للأمة الإسلامية التى جعلها الله : **﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾** يرتضى لها الإسلام دينا : **﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله . لانفرق بين أحدٍ من رسله . وقالوا : سمعنا وأطعنا . غفرانك ربنا وإليك المصير !!! ﴾** .

إنه الإيمان الشامل الذي جاء به الاسلام ، يؤمن به الرسول إيمان التلقى المباشر بلا أداة ولا وساطة ، وهو اعتراف بالحقيقة العليا ، التي تذوقها النبي - عليه الصلاة والسلام - ولايدرك عظمتها حتى يقدر على وصفها أحد سوى صاحبها الذي اختصّه الله بها ، وجاء إيمان المؤمنين فى كنف الرسول ﷺ تكريماً للمؤمنين على ما بينهما من فارق فى المذاق .

إن الإيمان الذي يليق بهذه الأمة ، الوارثة لرعاية حقوق الله ، القائمة على دعوته فى الأرض كلها إلى يوم القيامة ، والإيمان بالله هو قاعدة المنهج الذي تقوم عليه بقية التكاليف ، فهو إيمان خالص لله : فى الألوهية ؛ والربوبية ؛ فلاشريك لله فى الخلق ، ولاشريك لجلاله فى تصريف الأمور ! فليس هناك شركاء . . يتجه الناس إليهم ، فلاطاعة لغير الله ! فالله هو المصدر الأعلى على البشر جميعاً ، والسيادة على الأرض ، وعلى سلوك الناس مردها إلى الله وحده ، ومن ثم ؛ فإن الايمان بالله وما أنزل من عنده يعني :

- أن التشـريع ، وقـواعد الاخـلاق ، ونظم الاجتمـاع ، والحيـاة الاقتصادية ، وشكل الدولة . لا تتلقى قواعدها إلا من صاحب السيادة الواحد الأحد !! .

﴿ ذلكم الله ربكم ! لا إله إلاهو . خالق كل شيء ، فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل ﴾ ٢٠٢ - الأنعام

﴿ أفغير الله ابتغى حكما ؟ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا ؟ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكوننّ من الممترين ! ﴾ ١١٤ الانعام .

﴿ وتّمت كلمة ربك صدقاً ، وعدلاً ! لا مبدّل لكلماته ، وهو السميع العليم ﴾ ١١٥ - الانعام

والإيمان بالملائكة طرف من الايمان بالغيب ، يخرج الإنسان من نطاق الحواس المضروب سورا على الحيوان ، ويطلقه يتلقى المعرفة مما وراء هذا النطاق ، إذ أن الإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها المرء ؛ فيجتاز مرتبة الحيوان إلى مرتبته كإنسان ، فيدرك أن الوجود أكبرو اشمل من ذلك الحّيز الصغير ، المحدود ، الذي تدركه الحواس ، ويرى أن وراء الكون مدى أوسع من الزمان والمكان ، وأن حقيقة الألوهية أسمى وأجل من كل هذا :

﴿ لاتدركه الأبصار ! وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ﴾ !!

وبذلك يحقق الإنسان معنى إنسانيته ، ويلبى شوق فطرته ، بحقائق لاشطط فيها ولا إغراب !

﴿ وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد منهم ﴾ :

الإيمان بالله يقتضى الاعتقاد بكل ماصح أنه جاء من عند الله ، ويقتضى التصديق بكل رسول بعثه الله وتلك هى وحدة المصدر ، ووحدة الأصل ، التى تقوم عليها رسالات الأنبياء جميعاً ؛ ومن ثم . . فليس في التصور الإسلامي تفرقة بين أحد من الرسل ، فكلهم جاء برسالة الله إلى قومه ، فى صورة تتناسب مع حال الذين أرسل إليهم ، حتى انتهى الأمر ـ كما أراد الله ـ إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ .

وكان كذلك ، لأننا الأمة التى اختيرت ، لترث الرسالات كلها ، وتقوم على دين الله فى الأرض كلها .

درس :

وهذه الأمة التى نيط بها هذا العبء الثقيل علمها الله الاستجابة لأوامره ، كأنما تتجلى آثار الايمان فى السمع لكل ما جاء به النبي الخاتم ـ عليه الصلاة والسلام ـ والطاعة لكل ما أمر به : **﴿ ماآتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾** الحشر

وليس لهذه الأمة المطيعة شيء من التفاخر ، بقدر ما تشعر بشيء من التقصير . . فعلمها ربها : **الدعاء** : ﴿ **غفرانك ربنا** ﴾ إنه دعاء إثر استسلام وطاعة ؛ فهو دعاء لاعن تقصير فى الاستجابة ، بل إعلان لكمال الاستسلام لما جاء من عند الله ، مع الاعتذار إن بدا شىء من التقصير !!

﴿ **إليك المصير** ﴾ :

لقاء الطرفين فى العمل ؛ فالحياة استخلاف بعهد مشروط بالقيام بالمنهج ، لتحقيق العبودية فى كل بشر في هذه الأرض لله ، وعلى المؤمنين أن يزاولوا هذا العمل ، والجزاء هناك عند الله ، فى هذا الجوار الآمن الآمين العادل !! .

فالمسلم يمضي فى طريق تحقيق الخير ، وتقديم البر ، ويستمسك بالحق ، سواء كانت ثمرة ذلك العمل في الأرض كسباً أم خسارة ؛ فإن الجزاء هناك ؛ لأنه يتعامل مع الله : ﴿ **لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا** ﴾ .

﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ماكسبت وعليها مااكتسبت** ﴾ .

ذلك تصور المؤمن لرحمة ربه ، وعدله فى التكاليف التى يفرضها على عباده ، ويحملها المؤمن فى خلافته فى هذه الأرض ، فلا يتبرم بها ، ولايضيق صدراً منها ، ولايستثقلها ، وهو يعتقد أن الله كلفه ، وهو أعلم بطاقته ، فلو لم تكن فى طاقته مافرضها .

وتتقرر المسئولية الفردية : كل إنسان بماكسب رهين ، فلا يؤخذ لأحد بجرم أحد ، ولاينتظر من أحد عوناً لأحد ، فرجعة الناس إلى ربهم فرادى : ﴿ **وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً** ﴾ ٩٥ ـ مريم .

وكأنما سمع المؤمنون حقيقة يوم البعث فقالوا : ﴿ **ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا !! ربنا ولا تحمل علينا إصراً ، كما حملته على الذين من قبلنا !! ربنا ولاتحملنا مالاطاقة لنا به !**

واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا !! أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ !!

إنه دعاء من أدرك ضعفه وعجزه ، وأحس برحمة الله منه قريبة ؛ فالتجأ إلى كنف ربه ؛ وألصق ظهره إلى ركنه ، ومديد الضراعة إلى عونه ، ففى ذلك فقط الضمان الحقيقي لاجتياز الامتحان ، ونيل الرضوان ، والفوز بأنس الرحمن .

ليس في البيئة العربية إلحـاد :

في القرآن الكريم حشد من الآيات البينات تصور عقيدة العرب في العصر الجاهلي ، يقول الله تعالى :

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أمّن يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله فقل : أفلا تتقون ؟! ﴾ ٣١ - يونس .

﴿ قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله ! قل : أفلا تذكرون ؟ قل : من رب السماوات السبع ، ورب العرش العظيم ؟ سيقولون : لله . قل : أفلا تتقون ؟ قل : من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ، ولايجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله . قل : فأنى تسحرون ؟!﴾ ٨٤ - ٨٩ المؤمنون .

﴿ ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض ؟ وسخر الشمس والقمر ؟ ليقولن : الله ! فأنّى يؤفكون ؟ ﴾ ٦١ العنكبوت .

﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء ؛ فأحيا به الأرض من بعد موتها ؟ ليقولن : الله . قل : الحمد لله ! بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ ٦٣ - لعنكبوت .

﴿ ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن : الله . قل : الحمد لله ! بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ٢٥ ـ لقمان .

﴿ ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن : الله . قل : أفرأيتم ماتدعون من دون الله ؟ إن أرادني الله بضر . هل هُنَّ كاشفات ضرّه ؟ أو أرادني برحمة . هل هن ممسكات رحمته ؟ قل : حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون !! ﴾ ٣٨ ـ الزمر

﴿ ولئن سألتهم : من خلقهم ؟ ليقولن : الله ، فأنى يؤفكون ؟! ﴾ ٨٧ ـ الزخرف .

وكانت علّة العرب في عبادتهم للأصنام : ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا الى اللهزلفى ﴾ ٣ ـ الزمر .

إنها صورة توحي بأصلها السابق فى التوحيد ، الذي انحرف به العرب عن أصله ، ولا عجب فهم أبناء إسماعيل ، وكانوا يعتقدون : أنهم على دين أبيهم ، غير أنهم لم يكونوا منتبهين إلى ما صارت إليه عقائدهم ؛ فاندفعوا إلى تيار العاطفة : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ ﴿ إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ .

فالجو العربي فيه إسراف وتبذير في الألوهية أخرجها من التوحيد الحق ؛ ولهذا كانت مهمة الإسلام ؛ أما جو الإلحاد فلم تحفل به خلقية عربية ؛ فقد امتازت البيئة العربية بأنها موئل الأنبياء ، منذ رفع إبراهيم وولده إسماعيل ـ جد العرب ـ قواعد البيت العتيق .

لقد كانت أمة العرب تؤمن بالله أيام أن كان «ديمقريطس» غارقاً في جهله المادي لايعرف له رباً .

وكانت أمة العرب تؤمن بالله ، ولها حضارة تملأ أسماع الدنيا ، من الجزيرة العربية شرقاً ، إلى أوروبا غرباً ، فى حين كان « كارل ماركس » تموت أسرته جوعاً ، ويعيش مواطنوه فى ظلام العبودية ، والرق الأوروبي !

فلم يقبل الشعب العربي تعاليم ديمقريطس وانحرافات ماركس !

جــو التوحيـد الإســلامي

ومن هنا أخذ الإسلام الحنيف يصفى العقيدة من شوائب الشرك ، وأخذت الدعوة زهاء ثلاثة عشر قرناً تبني القاعدة الأساسية في التصور الاعتقادي ، لخير أمة أخرجت للناس التى ورثت مهمة الأنبياء فى تحقيق العبودية على وجه الأرض كلها لله رب العالمين .

وتعرض آيات القرآن الكريم هذه الوحدانية فى حشد غفير من الآيات البينات منها :

﴿ قل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير ؟ أم ما يشركون ؟ ﴾

﴿ أمنّ خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ؛ فأنبتنا به حدائق ذات بهجة . ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أإلـهٰ مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ﴾

﴿ أمنّ جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا . أ إلـهٰ مع الله ؟ بل أكثرهم لايعلمون ﴾ .

﴿ أمنّ يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض . أإلهٰ مع الله ؟ قليلاً ماتذكرون ﴾ .

﴿ أمّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أ إلـهٰ مع الله ؟ تعالى الله عما يُشركون ﴾ .

﴿ أمنّ يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإلٰه مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم . إن كنتم صادقين ﴾

﴿ قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ! وما يشعرون أيّان يُبعثون ﴾ . ٥٩ ـ ٦٥ النمل .

هذه جولة واسعة فى صفحة الكون ، وفى أقطار النفس ، يعرضها القرآن الكريم فى هذه المشاهدات ، في إيقاعات تملك على العقل السليم مناحي فكره ، فهو يسأل فى تلاحق لايدع له مجالاً للشك :

من خلق السموات والأرض ؟ من أنزل من السماء ماء فأنبت هذه الحدائق ؟ من جعل الأرض قراراً ؟ وجعل خلالها أنهارا ؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ؟ من يكشف السوء ؟ من يجعلكم خلفاء الأرض ؟ من يهدي الانسان فى ظلمات البر والبحر ؟ من يرسل الرياح بشراً . . . ؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده .؟ من يرزقكم من السموات والأرض ؟

وفى كل مرة يفزعهم باستفهام جامع لمعاني الاستفهام كلها ؛ فهو تقريع وتقرير ، وإرشاد للطالبين ، وهم بحكم فطرتهم ومواريثهم لايقدرون على الإجابة بأن هناك إلٰهاً مع الله ؛ وإذا فلم تكثر الأرباب من دون الله ؟[1] .

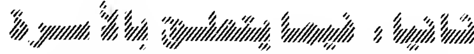
لذا فإننا نرفض :

الإلحاد وكل مايأتي من عنده قولاً أو فعلاً ، ونفاق الملحدين ، الذين يريدون أن يلبسوا مسوح الرهبان ؛ للتضليل والخداع ، ودعوى فصل القرآن عن سياسة الدولة والاقتصاد والمجتمع .

---

١ ـ راجع بقية العرض فى كتابنا : الدعوة الاسلامية في عهدها المكي . ص ١٠٩ ـ ١٢٨ .وكتابنا : منهج القرآن الكريم في إثبات العقيدة الإسلامية .

ونتمسك بذاتيتنا الإسلامية ، موحدين ومكبرين : لا إلٰه إلا الله وحده . . صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . لا إلٰه إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون !



ملخص موقف الشيوعية تجاه الأسرة يمكن تحصيله في نصوص المانيفستو وأقوال كبارها :

«أ» جاء في البيان الشيوعي : هدم العائلة ، حتى أشد الراديكا ليين تطرفاً تسخطهم نية الشيوعيين هذه الفاضحة المرذولة .

ولكن على أية قاعدة ترتكز العائلة البورجوازية فى الوقت الحاضر ؟

إنها ترتكز على الرأسمال والربح الفردي ، وهي بكامل كيانها ، وتمام بنيانهم ليست موجودة إلا عند البرجوازية فقط ، ولكن تتمتها هي الإلغاء القسري للعائلة ، بالنسبة للبروليتاريا ثم البغاء العلني .

أتأخذون علينا أننا نريد القضاء على استثمار الأبناء من قبل أهلهم وذويهم ؟ إن كان ذلك فنحن نعترف بهذه الجريمة .

إن تشدق البرجوازي الفارغ من العائلة ، والتربية ، وعن الأواصر ، والصلاة العذبة التى تربط الولد بأهله أصبحت تتقزز منه النفس أكثر فأكثر ؛ إذا أن الصناعة الكبرى تهدم كل صلة عائلية عند البروليتاريا ، وتحول الأولاد إلى مواد تجارية بسيطة ، وأدوات عمل صرف .

إنكم أيها الشيوعيون تريدون إشاعة المرأة .

ليس الزواج البرجوازى فى الحقيقة والواقع سوى إشاعة النساء المتزوجات ، فقصارى مايمكن أن يتهم به الشيوعيون إذن هو : أنهم يريدون

- كما يزعم - الاستعاضة عن إشاعة النساء المستترة بالرياء والمغطاة بالمراجاة ، بإشاعة صريحة رسمية«١»

«ب» ومن أقوال كبارها

قال فريدريك إنجلز : « إن التدبير المنزلي سيتحول إلى صناعة اجتماعية ، فتنتقل العناية بالأطفال وتربيتهم إلى الدولة ، وتصبح هذه من الأعمال العامة ، لأن المجتمع هو الذي سيرعى أمرهم ، سواء كانوا أولاداً شرعيين أم غير شرعيين ، وهذا من شأنه أن يزيل كل خوف من جهة النتائج ، والخوف من النتائج هو أهم عامل أدبي ومادي يمنع الفتاة من أن تهب نفسها لمن تحبه » .

وقال لينين عام ١٩٢٢م : « نحن لانؤمن بالأفكار المثالية عن الأسرة ، فهذه الأفكار المثالية تنادي بجعل الأسرة مجتمعاً ذا كيان خاص ، له استقلاله ، ونحن لانؤمن بمثل هذه المثالية ، التى تشجع على جعل الوطن مجموعة من الأسرات المستقلة ، إن الأسرة فى نظرنا ليست سوى أفراد مستقلين ، نحدد لكل منهم دوره فى المجتمع » .

وقال ستالين عام ١٩٢٨م : « دعوني أذكر لكم بصراحة : أنه من الخطر على حياتنا السياسية تشجيع ذلك المفهوم الخاطىء للأسرة ، وأقصد بذلك الآراء القائلة بأن هناك مايسمى الولاء للأسرة ، فالولاء الوحيد المسموح به في مجتمعنا هو الولاء للدولة » .

وقال في عام ١٩٣٠ : « مادمنا ننكر الأديان فإننا لانستطيع أن نأخذ بالآراء القائلة بأن للأسرة قداسة ، فكل القداسات زائفة ونحن لانريد أن يكون

---

١ - البيان الشيوعي ص ٦١ - ٦٣ .

للأسرة أي نوع من أنواع القداسة ، مثلما لا نريد أن يصبح الولاء العائلي عائقاً يحول دون تحقيق أهدافنا » .

الخلاصة : ان كل القداسات الأسرية زائفة : فلاقداسة للزواج ؛ ولاقداسة للآباء !، ولاقداسة للأبناء !!

فماذا بقي للانسان من قيمة ومعنى ؟!



﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ؛ لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ٢١ ـ الروم .

﴿ هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن ﴾ . ١٨٧ ـ البقرة .

﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾ ٤ ـ النساء .

﴿ يأيها الناس ، اتقوا ربكم ، الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ ١ ـ النساء

البيت بمثابة سكن ، وفى ظله تنبت الطفولة ، وتدرج الحداثة ، ومن سماته تأخذ سماتها وطابعها ، وفي جوّه تتنفس وتتكيفّ .

والبيت فى نظر الإسلام هو قاعدة الحياة الأولى ؛ فقد شاء أن تبدأ هذه النبتة فى الأرض بأسرة واحدة ، فخلق ابتداء نفساً واحدة ، وخلق منها زوجها ، ثم بث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، ولو شاء الله لخلق فى أول النشأة رجالاً كثيراً ، ونساءً كثيرات ، ثم زوجهم فكانوا أسراً شتى من أول الطريق ، لارحم بينهم

من مبدأ الأمر ، ولا رابطة تربطهم ، ولكنه سبحانه شاء ـ لأمر يعلمه ، ولحكمة يقصدها ـ أن يضاعف الوشائج ، فيبدأ بها من وشيجة الربوبية وهي أصل وأول الوشائج ، ثم يثنى بوشيجة الرحم ، فتقوم الأسرة الأولي من ذكر وأنثى ، هما من نفس واحدة ، وطبيعة وفطرة واحدة ، ومن هذه الأسرة الأولى يبث رجالاً كثيراً ونساء كثيرات ؛ وكلهم يرجع ابتداء إلى وشيجة الربوبية ثم يرجعون بعدها إلى وشيجة الأسرة ، التى يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني ، بعد قيامه على أساس العقيدة : (اتقوا الله) ومن ثم . . هذه الرعاية للأسرة فى النظام الإسلامي ، وهذه العناية بتوثيق عراها ، وتثبيت بنيانها وحمايتها من جميع المؤثرات التى توهن هذا البناء ، وفى أول هذه المؤثرات مجانبة الفطرة وتجاهل استعدادات الرجل واستعدادات المرأة ، وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها البعض ، وتكاملها لإقامة الأسرة من ذكر وأنثى .

ويصور « القرآن الكريم » العلاقة البيئية تصويراً شفيفاً ، يشع منه التعاطف وترف فيه الظلال ، ويشيع فيه الندى ، ويفوح منه العبير : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا** . . ﴾ فهي صلة النفس بالنفس ، وهي صلة السكن والقرار ، وهي صلة المودة والرحمة ، وهي صلة الستر والتجمل ، وإنك لتحس في الألفاظ ذاتها حنواً ورفقاً ، تستروح من خلالها نداوة وظلاً ؛ وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التي يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنساني الرفيق الوثيق ، ذلك فى الوقت الذي يلحظ فيه أعراض ذلك الرباط كلها بما فيها امتداد الحياة بالأولاد ، فيمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة ، ويعترف بطهارتها وجديتها ، وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها ، ذلك حين يقول : ﴿ **نساؤكم حرث لكم** ﴾ فيلحظ ذلك معنى الإخصاب والإكثار . يحيط الاسلام هذه الخلية ، أو هذا الحصن ، أو هذه المثابة بكل رعايته ، وبكل ضماناته ، وحسب طبيعة

الاسلام الكلية فإنه لايكتفى بالاشاعات الروحية بل يتبعها التنظيمات القانونية ، والضمانات التشريعية :ـ

فأولاً : لابد فى هذا الارتباط من الرضى والاستئذان ، فلا تزوج المرأة بغير إذنها ورضاها : « لاتنكح الثيب حتى تستأمر ، ولاتنكح البكر حتى تستأذن وإذنها الصموت» ولابد فيه من الرؤ ية ليكون هذا الرضى جديا ، وقائمًا على حقيقة ، ومنبعثاً من شعور : « فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » .

وثانياً : لابد فيه من علانية وإشهاد ، فلايتم فى السر والخفاء مثل الجريمة ، فلابد من إيجاب وقبول صريحين ، يشهد عليها الشهود فلا يبقى ظل من شك أو غموض فى قيام هذا الارتباط ، حتى ليستحب دق الطبول لهذه المناسبة ؛ زيادة فى الإعلان !

وثالثا : لابد فيه من نية التأبيد لا التوقيت ، فإذا نوى أو صرح بأن يكون هذا الزواج موقوتاً بزمن ، لم ينعقد ؛ لأن هذا الارتباط مقصود به السكن والاستقرار ، مقصود به أن يركن إليه الزوجان فى اطمئنان ، وأن يبنيا فى ظله الحياة وهما واثقان آمنان .

ولكى يهىء الإسلام للبيت جوّه ، ويهيىء للفراخ الناشئة فيه رعايتها ، أوجب على الرجل النفقة وجعلها فريضة ، كي يتاح للأم من الجهد ، ومن الوقت ومن هدوء البال ما تشرف به على هذه الفراخ الزغب ، وماتهيىء به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها ، فالأم المكدودة يالعمل للكسب ، المرهقة بمقتضيات العمل ، المقيدة بمواعيده ، المشتتة الطاقة فيه ، لايمكن أن تهب للبيت جوّه وعطره وأمنه وسكينته واستقراره ، ولايمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها .

نعم ! إن المرأة فى المجتمعات الحديثة تضطر إلى العمل ، لكسب معيشتها ، إلا أن هذا الاضطراب خلل فى المجتمع ، يؤسف له من وجهة النظر الإسلامية ! ولايغتبط به ، ولايبني عليه قوام الحاضر والمستقبل ، وقديماً كان الطفل الصغير مضطراً إلى العمل ، لكسب معيشته ، فلم تكن هذه فضيلة للمجتمع الذي يحدث فيه تستوجب التشجيع والإقرار ، وتستقيم عليه أسس التربية والتشريع ، بل كان خللاً وخيم العاقبة ، تتضافر الجهود على تحريمه ، وتحاربه الشرائع والآداب ، على الرغم من الاضطرار إليه فى كثير من الأحوال ، وأن الخلل الذي يلجيء المرأة إلى السوق ، وإلى المصنع ، وإلى معارك الحياة ، لحقيق بمثل هذه المحاربة !.

وبعد ردح طويل من الزمن من اللغط « بالرجعية » فى الإسلام ـ كما تتوهم الماركسية ـ يحق للمسلم أن يبتسم وهو يرى فى كل يوم ضربة من ضربات الفطرة ترتد بالسخرية على من يخرجون عليها ، ونقرأ فى خطب فلاسفة الماديين كلاماً عن الأسرة الملعونه !ـ فى عرفهم ـ يقيم عليها دعائم المجتمع الصناعي ، الذي ينبغى أن يعصف بالأسرة عصفاً ، إذا صح ماقدره له ماركس وأتباعه .

يقول « حارشيف » الماركسي فى خطاب أذيع له فى شهر يناير سنة ١٩٥٦م : « إن الأسرة السوفياتيه الناشئة تخلق من أجل العمل المشترك على مصلحة الوطن ، كي تزوده بأبناء وبنات مجتهدين مخلصين ، وأن سعادة الأسرة لن تنفصل عن سعادة المجتمع الاشتراكي وجهوده » .

ويقول « خروشوف » فى تقريره للمؤتمر العشرين ونشرته جريدة «البرافدا» فى ١٥ فبراير سنة ١٩٥٦م : « إننا لانستطيع أن نتجاهل الحقيقة الواقعة التى تلاحظ فى هيئات كثيرة من هيئات الحزب الشيوعي ، وهي الحذر من ترشيح النساء للمراكز الرئيسية ؛ فإن عدد النساء قليل جداً بين أصحاب

المراكز الموجهة فى الأعمال السوفياتية ، ولاسيما مراكز السكرتارية فى اللجان ، ومراكز الرئاسة فى اللجان التنفيذية ، والمشروعات الصناعية ، والحقول المشتركة ، وحقول الدولة . . » .

لكن الإسلام جعل القوامة للرجل كسبيل للإستقرار البيتي ، قطعاً لدابر الفوضى والنزاع فيه ، وذلك تمشياً مع ذاتية الإسلام وسياسته التنظيمية ، التى يحرص عليها حرصاً شديداً ، والتى جعلت الرسول ﷺ يأمر الرجال أن يؤمروا عليهم أحدهم ، حتى لو خرج ثلاثة في أمر فأحدهم أميرهم .

ذلك لأن العدل بين الجنسين لايقوم على أساس المساواة في الفرص ، والمطالبة بواجبات كواجبات الآخر ، أو تخويله حقوقاً مثل حقوقه ، بل إن العدل بين الجنسين فى توزيع العمل بينهما على قدر مايتوفر كل منهما عليه ، وهذا هو العدل على سنة المساواة بين الواجبات والحقوق ، وأن تكون حقوق الجنس مكافئة لواجباته ، وواجباته مكافئة لحقوقه ، ومن الهزال ـ وليس من الجد فى شيء ـ أن تعلم أن تربية البنين وتنشئة الجيل الجديد ، وتنظيم البيت والأسرة ، واجب على المرأة قبل الرجل ، ثم تزعم أنها مساوية له ، إذ تقوم بهذا الواجب ، وتقوم باعباء الرجل فى الأعمال العامة على السواء !! .

إن عدل المساواة بين الواجبات والحقوق ، هو عدل الإسلام ، فى بيان حقوق المرأة وحقوقها على الرجل ، وحقوق الرجل عليها : **﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾** .

﴿ الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم . . ﴾ وتقسيم الواجبات والحقوق فى الاسلام على هذا القسطاس هو تقسيم الفطرة ، الذي نرجع إليه قسراً ، كلما شردنا عن طريقه ، بلون من التفلسف ، وليس مجهولاً أن تقسيم الفطرة يقرر أن مكان

المرأة أولاً وقبل كل شىء فى القيام على شئون البيت ، وتربية الجيل الجديد ، ومن حقها إذن على الرجل أن يتولى الإنفاق عليها وعلى البيت .

إن توحيد القيادة ضروري لأمن السفينة ، وفي سفينة البيت لابد من قيادة تتحمل التبعة ، وتحفظ النظام أن ينتكث ، وليس فى هذا من شذوذ على القاعدة الإسلامية العامة فى عالم الرجال .

فأي الزوجين كان المنطق كفيلا بأن يسلمه القيادة ؟ المرأة المشبوبة العواطف والانفعال بحكم وظيفتها الأولى فى رعاية الأطفال ، وتعطير البيت بالجمال والبهجة والأنس والمودة والسرور والسعادة ؟ أم الرجل الذى كلفه الإسلام بالإنفاق لتخلو المرأة إلى مملكتها الواسعة فتنفق فيها طاقاتها الواسعة ؟

لقد جعل الله القوامة للرجل ، وذلك حكم الله تحقيقاً لنظامه المطّرد أن تكون فى كل عمل قيادة وقوامة ، واختاره ـ جل شأنه ـ لهذه القوامة ، وهي عبء ثقيل لأن الله خلقه مستعداً بخلقته وتجاربه ، ليكون أصلح الاثنين لهذه الوظيفة .

وفى جو الحنان البيتي يقرر الإسلام التكافل العائلي ، وهو تكافؤ منبعث من الثقة المتبادلة ، والشعور بالأمن والاطمئنان إلى حياة سعيدة ، ومستقبل كريم .

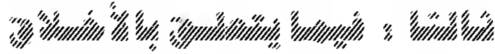
ومع أن عاطفة الأبوة وحدها كذلك كافية فى رعايته ، والحفاظ عليه وعلى أمه ، إلا أن الإسلام أضاف إلى العاطفة الفطرية فى الوالدين تكاليف التكافل العائلي فيوصي الوالدين بالحفاظ على الوليد مهما كانت ظروف المعيشة :
﴿ ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق . نحن نرزقهم وإياكم . إن قتلهم كان خطئا كبيرا ﴾ ٣١ ـ الاسراء .

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لاتكلف نفس إلا وسعها .

لاتضار والدة بولدها ، ولامولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك . . . الآية ﴾ ٢٣٣ ـ البقرة .

وفي مقابل هذا حق للآباء على الأبناء : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا . إما يبلغن عندك الكبر ـ أحدهما أو كلاهما ـ فلا تقل لهما أف ! ولاتنهرهما ! وقل لهما قولاً كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . . ﴾ ٢٣ ـ الاسراء .

هكذا تسيل عبارات القرآن الكريم رقة وشفافية ، تظهر فيه مواثيق التكافل غنمًا بغنم ، وغرماً بغرم ، وكانما الفطرة السليمة ترتشف من نهر الخلود ، رحيق الأبدية فى أنس غير محدود ، ورضوان من الله أكبر[1]



محصول ما قاله الشيوعيون عن القوانين والأخلاق يرجع إلى ما جاء في إنجيلهم المتهافت ، وكلام زعمائهم المريض .

قال في المانيفستو : « وما القوانين ، والقواعد الاخلاقية ، والأديان بالنسبة إليه إلا أوهام برجوازية ، تستتر خلفها المصالح البرجوازية[2]

اقوال كبارها :

قال فردريك انجلر عام ١٨٧٧م : « إننا نرفض شتى المحاولات التى تحاول أن تعرض علينا أخلاقا تستند إلى المثاليات ، ذلك لأننا نؤمن أن الأخلاق هي نتاج الأوضاع الاجتماعية ، ولما كانت الأوضاع الاجتماعية متغيرة ؛ فإن مفاهيم الأخلاق التى نؤمن بها هي كل عمل يؤدي إلى تحقيق انتصار مبادئنا ، مهما كان هذا العمل منافياً للأخلاق المعمول بها »

---

١ ـ راجع حول هذا الموضوع : استوصوا بالنساء خيراً ، والسلام العالمي ، والاسلام والشيوعية والإنسانية في شريعة الاسلام .

٢ ـ البيان الشيوعي .

وقال لينين عام ١٩١٠م : « يجب على المناضل الشيوعي الحق أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل ، فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقيق الشيوعية .

وقال فى عام ١٩١٨م : « . . إذا لم يكن المناضل الشيوعي قادراً على أن يغيّر أخلاقه وسلوكه ، وفقاً للظروف مهما تطلب ذلك من كذب وخداع ، فإنه لن يكون مناضلاً وثورياً حقيقياً .

وقال فى عام ١٩٢٠م : « إن المناضل الشيوعي الثوري الحق هو ذلك الذي يبذل كل تضحية يفرضها عليه تحقيق الهدف الشيوعي ، ولو تطلب الأمر للتضحية بالأخلاق ، والكرامة ، والضمير ، فالهدف المثالي الحق هو : تحقيق المجتمع الشيوعي ، وتدعيمه ، يجب علينا أن نتوسل بكل أنواع الحيل والمناورات والوسائل غير القانونية ، لتحقيق أهدافنا الشيوعية .

وقال ستالين عام ١٩٣٨م : إن الشيوعي المخلص من الدول غير الشيوعية هو ذلك الذي يعرف كيف يقضى على نظم الحكم غير الشيوعية ، بلاهوادة وبلا رحمة أو شفقة ، وهو ذلك الذي يستعين بكل وسائل التضليل والخداع وسعة الحيلة لفرض الشيوعية .

وقال عام ١٩٤١ : « الأخلاق الصالحة فى نظرنا هي تلك التى تيسر لنا القضاء على النظام القديم ، وهي تلك التى تدعم النظام الشيوعي ، ولاشىء غير هذا يمكن أن يسمى أخلاقاً فاضلة .

وقال فى عام ١٩٣٧م : دعوني أوضح لكم بصراحة : إن نظامنا الشيوعي لا يؤمن بالحرية الفردية ، فالحرية الفردية تعني القضاء على « الجماعية » وتعني الخروج على طاعة القانون ، وتعنى الانحراف عن الماركسية ، وهذا النوع من الحرية الفردية هو أخطر ما يهدد نظامنا .

وقال مالينكوف عام ١٩٥٢م : « إن الاخلاق الفاضلة فى نظرنا هي : كل الوسائل التى تؤدي إلى القضاء على النظام القديم ، بينما تؤدي فى الوقت ذاته إلى تدعيم النظام السوفياتي .

نحن لانسمح للاحزاب الشيوعية خارج بلادنا باتخاذ أية إجراءات ، قد تسيء إلى الاتحاد السوفياتي ، ذلك أن حزبنا هو الذي يوجه هذه الاحزاب »

إن أبسط القواعد لمن يدب على هذه الأرض من الحيوانات التي تعيش سائحة في مجاهل آسيا وأفريقيا أنها تخضع بالتسيير الفطري لقوانين غرزية قد تفضل الشيوعية في اختيارها لمرعاها والحنان على صغارها وحماية أسرتها ، والدفاع عن عرينها حتى الموت .



قال رسول الله ﷺ : « اللهم كما حسنت خلقي فحسّن خلقي » رواه أحمد بن حنبل ـ حديث حسن .

« اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء » رواه الترمذي والطبراني والحاكم . حديث حسن

« أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً » رواه أحمد وأبو داود ، وابن حبان . حديث صحيح

« أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم » . رواه الترمذي ، وابن حبان . حديث صحيح .

﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ١٠ ـ الحجرات

المؤمنون أقرب رحما بعضهم إلى بعض بطبيعة الإسلام ، فانهم بحكم أخوتهم في الله والتقائهم في العقيدة التي تعتبر في نظر الإسلام أوثق الروابط .

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » متفق عليه .

إن أصحاب هذه الوشيجة السامية يهتف بهم رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » متفق عليه .

ويحرم عليهم الخصومة : « لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » أخرجه الستة عدا النسائى .

والرحمة صنو الحب ، والله يصف نفسه بالرحمة : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ ﴿ فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ﴾

ويجعلها لنبيه الخاتم سيدنا محمد ﷺ صفته المميزة لذاته الشريفة

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾

بل إن الإسلام ليخطو بوجدان المسلم فى تصور الرحمة خطوة كبرى ، فيتجاوز بها عالم الإنسان كله إلى عالم الأحياء ، فيشيع في العقل البشرى بسمة ورقة وتلطفا تجاه كل ذي روح وكبد رطب ، فعن النبي الكريم ﷺ أنه قال : « . . قالوا : يارسول الله ، وإن لنا في البهائم أجراً ؟ قال : نعم . فى كل ذات كبد رطبة » .

إن الحب والصفاء والود بين جماعة المسلمين غاية من غايات الاسلام ، ولكى يحقق الإسلام الحب والصفاء والمودة فى القلوب فإنه يأخذ المسلمين بآداب نفسية واجتماعية ، تعين على هذه الغاية ، وتمنع أن تثور الأحقاد في

النفوس ، أو تغمر البغضاء القلوب ، وهو يستعين بهذه الآداب الرفيعة قبل أن يستعين بالقانون والتشريع ، وإن كان يتخذ من كليهما أداة ، لأن السلوك المهذب والأدب الجميل ، والمعاملة الطيبة ، كلها تشيع فى جو الحياة الاجتماعية رضى وبشاشة وطمأنينة قد تغني عن التشريع والقانون .

إن الإسلام يمقت الخيلاء والكبرياء : ﴿ **ولاتصعر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحاً . إن الله لايحب كل مختال فخور ! واقصد في مشيك وأغضض من صوتك . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾ ١٨ ـ ١٩ لقمان .

وفي الحديث الشريف : « إن الله أوحى إلّى أن تواضعوا ، حتى لايبغى أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد » رواه مسلم وأبو داود

ويلحظ الإسلام فى هذا التوجيه طبائع النفوس ، فهي تكرهُ المتكبرين ، والمختالين ، وتضيق ذرعاً بالمتباهين والمعجبين ، وتحمل الغيظ والحنق لكل هذه الأنماط من السلوك ولو لم تكن هناك إساءة .

وإذا كان الإسلام يكره الخيلاء والكبرياء ، فهو يحرم كذلك كل ما يمس كرامات الناس ، ومشاعرهم وأحاسيسهم . قال الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولانساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولاتلمزوا أنفسكم ، ولاتنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ! ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾ ١١ ـ الحجرات

إن الإسلام يلحظ أدق مشاعر النفس حتى إنه لينهى أن يتناجى اثنان فى حضرة ثالث ، ففى الحديث الشريف : « اذا كان ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يؤ ذيه » رواه الثلاثة وأبوداود .

ومن هنا كان النهي عن المن بالمعروف والصدقة ، فالمن خلق خسيس مؤذ للكرامة ، ولهذا فهو يمحق الصدقات ويُذهب المعروف . قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ، ولايؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ ٢٦٤ ـ البقرة .

ويدفع الاسلام المسلم إلى الصورة الإيجابية ؛ فيدعو إلى إشاعة الكلمة الطيبة بين الناس : ﴿ **وقل لعبادي : يقولوا التى هي أحسن** ﴾ ٥٣ ـ الاسراء ﴿ **وقولوا للناس حسنا** ﴾ ٨٣ ـ البقرة ﴿ **وإذا حييتم بتحية ، فحيّوا بأحسن منها أوردوها** ﴾ ٨٦ ـ النساء ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما** ﴾ ٦٣ الفرقان .

وإفشاء السلام ، وأحكام الطعام ، ومقابلة السيئات بالحسنات ، والعفو عن المسيء وكظم الغيظ ﴿ **ادفع بالتى هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** ﴾ ٣٤ ـ فصلت ﴿ **ولمن صبر وغفر . إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾ ٤٣ ـ الشورى . ﴿ **وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ، فإن الله غفور رحيم** ﴾ ١٤ ـ التغابن . ﴿ **وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾ ٣٧ ـ الشورى وينأى الإسلام بالمسلمين عن مثيرات الأحقاد ، ومورثات الضغائن ، مثل مجالس القمار ، والشرب الحرام ، حيث لا ضابط للنزوات ، ولا عاقل للهفوات : ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ؛ فهل أنتم منتهون ؟!** ﴾ ٩١ ـ المائدة .

ولقد أرسى الإسلام دعائم الاخلاق فى ضمانات تحفظ على المسلمين حياتهم وأعراضهم وكرامتهم وأموالهم ؛ فجعل القصاص فى حالة العمد ، وقد نفر الإسلام أشد التنفير من الإقدام على إزهاق أرواح الناس ظلمًا ؛ ففى

الحديث الشريف : « والذي نفسي بيده لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مؤمن » « من أعان على قتل مؤمن ولوبشطر كلمة ، جاء يوم القيامة مكتوب على عينيه : آيس من رحمة الله » رواه ابن ماجه .

ولهذا فإن الإسلام يقرر : أن القاتل المتعمد لاتوبة له . يقول الرسول ﷺ « أبى الله أن يجعل لقاتل المؤمن توبة » حديث صحيح . رواه الطبراني في الكبير .

وجعل الدية فى حالة الخطأ ؛ ليضمن ضبط السلوك في المجتمع ، ويبعده عن هو جائية الثأر ، وفوضوية التحمس المارق : ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ ١٧١ ـ البقرة .

﴿ ومن قتل مظلوماً ؛ فقد جعلنا لوليه سلطانا ، فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا ﴾ ٣٣ ـ الاسراء

﴿ وماكان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة إلى أهله . . الآية ﴾ ٩٢ ـ النساء .

وجعل للمال والعرض حرمة ؛ فمن اعتدى على العرض انحرافاً وهو محصن ، كانت عقوبته الرجم ، ليتذوق كل جزء في بدنه ألم العقوبة ، كما تذوق لذة المعصية ، وإن كان عزباً جلد مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى سبيل الله ، وإن كان قذفاً للعرض ، جلد ثمانين جلدة ، حتى يتعلم الأدب مع الآخرين :

﴿ والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولاتقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ﴾ ٢ ـ النور .

وأما المال الحلال المكسوب بالطريقة الحلال ، التى لاغش فيها ولا احتكار ولاغصب ، ولا سرقة ، فقد حفظه الله بشريعة تؤدب النفس الضالة ،

﴿ والسارق والسارقة ؛ فاقطعوا أيديهما ، جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾ ٣٨ ـ المائدة .

وفي الحديث الشريف : « كل المسلم على المسلم حرام . دمه ، وعرضه ، وماله » رواه الستة إلا النسائى

وجعل الإسلام للمسكن كرامة وحرمة خاصة، فلا يجوز لأحد أن يقتحم على واحد من الناس ـ ولو كان صغيراً جداً ـ داره بغير اذنه ، ولايتسور عليه داره بغير إذنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا ، لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا ، وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ؛ فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها ، حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم : ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم ﴾ ٢٧ ـ ٢٨ النور .

ولهذه الحرمة فقد حرم الإسلام التجسس والغيبة ، وترك الإسلام عقوبة مخالفة هذه الآداب للرقابة فى نفس المؤمن ، وتقدير أهل الحل والعقد ، وجدية الحاكم الإسلامى في رعايته لحقوق الله فى الرعية ، وأخذها فى حزم بنظام الإسلام ، فى كل ماتفعل وفى كل ماتدع .

ولقد حرص الاسلام على تنقية الخلق من الكذب والنفاق ، وخلف الوعد ، ففى الحديث الشريف : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » رواه الشيخان والترمذي والنسائى .

ويأمر بالصدقة ، والعفاف ، والوفاء بالعهود . يقول الله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ ٩١ ـ النحل ، ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ ٢٤ ـ الاسراء .

وفى الحديث الشريف : « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البريهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدى

إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » رواه الشيخان من طريق عبدالله بن مسعود .

ذلك حظ المسلم فى أخلاقياته ، يكرمه الله بها ، ويتكرم الجنس البشري كله بهذه الآداب ، وإنها لتوضع بذاتيتها الإسلامية كنظام فريد سام ، في مواجهة لا أخلاقيات الماركسيين ؛ ليحيا من حيّ عن بيّنة ؛ فإن فرائض الأخلاق يتشبعها الإنسان ، ويخجل من مخالفتها ، لأنها في الغالب منوطة بكرامة الإنسان ، التى تعم كثيراً فى الأمم والبيئات ، ولايحس أنها صادرة من السلطة ، أو أنها مقيدة بعشيرة معينة ، ومع هذا فإن الأخلاق في الدين لايمكن أن يقال عنها مثل ذلك لأن الدين يقوم على علاقة الإنسان بالكون كله ، ويكون من الجهل بطبيعة الشعور الانساني أن يقع في الحدس أن الغني يمكن أن يستغني عن الشعور الديني ، فيقال : إن الدين في نظر الغني وسيلة يضلل بها المحرومين ، ويستعين بها على الكسب والاستغلال !!

وأجهل من ذلك أن يقال : إن الإنسان يتدين ؛ لأنه ضعيف بين نواميس الكون ، وقوى الوجود ؛ لأن الإنسان بغير دين يكون كذلك ضعيفاً بين نواميس الكون ، بل ويكون خارجاً عليها ، لأن الدين بالنسبة للإنسان من نواميس هذا الكون ، وكيف ندرك حقيقة الدين أبعد أن يصبح الكون أضعف من الإنسان ؟

ومن هنا تضل الماركسية لأنها تجهل مشاعر الإنسان ، أو تتجاهل طبائع الوجدان في البشر ، وهي بذلك للإنسان مطلقاً عدو مبين[1]

---

١ ـ راجع حول هذا كتابي : الاسلام العالمي . . والاسلام والشيوعية والإنسانية .

قال في المانيفستو الشيوعي : « أما هدف الشيوعيين المباشر فهو الهدف نفسه ، الذي ترمي إليه جميع الأحزاب البروليتارية أي : تنظيم البرولتيارية في طبقة ، وهدم سيادة البرجوازية ، واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية[1] » .

« ولايتم ذلك طبعاً في بادىء الأمر إلا بخرق حق التملك ، وعلاقات الإنتاج البرجوازية ، بالشدة والعنف ، أي باتخاذ تدابير تتراءى من الوجهة الاقتصادية غير كافية ولا مأمونة البقاء »[2] .

« وعلى أنقاض المجتمع البرجوازي القديم بطبقاته وتناقضاته الطبقية يبرز مجتمع جديد ، تكون حرية التطور والتقدم لكل عضوفيه شرطا لحرية التطور ، والتقدم ، لجميع الأعضاء[3]

ودليل كذب هذه النظرية فشلها وعجزها عن مسايرة الطبع البشري رغم كمال التسلط والعنف عند الحكام هناك :

أولاً : فكرة التعايش السلمي مع البلاد ذات النظام الحر ، وذلك محرم فى النظرية .

ثانيا : كل من بدأ التوسع فى حدود الملكية الزراعية ، بل إلغاؤ ها فى جمهورية أوكرانيـة وجمهورية ايستونيت .

---

١ ـ البيان الشيوعي ص ٥٦

٢ ـ البيان الشيوعي ص ٦٦ .

٣ ـ البيان الشيوعي ص ٦٧ .

فقد أعلنت وكالة « تاس » السوفياتية ذلك فى ٦ تشرين الثاني سنة ١٩٦٤م ، وكان قد سبق ذلك الإجراء تعديل فى دستور الاتحاد السوفياتي ، المطبوع عام ١٩٤١م ينص على تمليك المسكن مع توريثه .

ثالثا : إعطاء الحق للأفراد في السوفيت الشيوعي فى استثمار مدخراتهم من النقد ، وإيداعه في البنوك ، والسماح بالفائدة على رأس المال المودع ، وذلك محرم ماركسيا ، ولاتأويل عندهم البتة ، لأنهم يدّعون الحتمية في تطبيق نظريتهم ، ويفرضونها فرضاً على العالم ، والواقع ، والناس !

رابعاً : لمافسد الإنتاج الزراعي ، وساءت حالة المصانع ، عادت الحكومة إلى فكرة الحافز الشخصي ، فقد أعلنت « البرافدا » الشيوعية فى ٦ ـ ١٢ ـ ١٩٦٤م : أن مجلس السوفيت الأعلى سوف ينظر فى إعطاء بعض الحريات المحدودة للعمال أخذاً بمبدأ «التيسير الذاتي »[1] .



إن التوازن الإجتماعي هو القاعدة الكبرى التي يقيم عليها الإسلام بناء العدالة الإجتماعية ، في مجتمعه الرباني ، المتآخي ، المتوادد ، المتراحم .

وهذا التوازن ملحوظ في : نظام الحكم وطريقته ؛ ولكنه يبلغ ذروته في الجانب الإقتصادي العام ، جانب توزيع الثروة العامة ، وضوابطه وقيوده في محيط الجماعة ، وهو يبلغ هذه الذروة بوسائل عديدة شتى نوجزها في الآتي :

المبدأ الأول : ألا يكون المال متداولاً في أيدي الأغنياء دون الفقراء ، والنص فى ذلك صريح وواضح : ﴿ كي لايكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾

---

١ ـ راجع كتاب : نظرات إسلامية فى الاشتراكية الثورية للدكتور / معروف الدواليبي ص ٧٥ . وكتاب « اشتراكيتهم وإسلامنا » : بشير العوف ص ٥٥ .

فهـو تعليـل لتصـرف واقعـي من فعـل الرسول ﷺ ولذلـك يأخذ حكـم المبدأ العام فقد أعطى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيء بني النضير كله للمهاجرين الفقراء ، دون أغنياء الأنصار ، وقد أعطى فقراء الأنصار ، لكي يعيد التوازن الاقتصادي للجماعة المسلمة ؛ وبهذا المبدأ توضح القاعدة الأساسية لتوزيع الثروة فى الأمة الإسلامية ، مع احترام واضح للملكية الفردية ، التى جمعت من مصـادر حلال ، لاغش فيهـا ، ولا احتكار ولاغصب ، ولا سرقة ، ولا ابتزاز .

المبدأ الثاني : تحريم الربا ؛ فالإسلام يقرر « الربح » وينكر « الفائدة » لأن الربح قابل للنقص والزيادة وفق الجهد المبذول ، أما الفائدة فهي ثابتة ، حتى ولو لم يأت الجهد البشري بشىء من الثمار ، والصورة التي يرتضيها الاسلام لصاحب المال : « أن يشتغل بنفسه فيربح أو يخسر » ، « أو يشارك بماله صاحب حذق وجهد ، ثم يتقاسمان الربح والخسارة ؛ فذلك هو العدل المطلق »

المبدأ الثالث : تحريم الاحتكار ؛ ويشمل احتكار عقود الإمتياز ، والإسلام يحرم الاحتكار ، لأنه يخلق قوة طاغية في يد المحتكر لايستمدها من الجودة ، والإتقان ، وحسن الخدمة وكفايتها ، إنما يستمدها من وجود عقد الامتياز فى يده ، أو من احتكاره للسلعة فى السوق ، وهذه قوة طاغية ، وهي محرمة في الإسلام ؛ لأنها تتخذ من حاجة الناس إلى السلع ، وإلى المرافق سلاحاً لايملكون له مقابلاً وتملك أن ترشو القائمين بالحكم ، ثم تسترد هذه الرشاوي مضاعفة من الجماهير المغلوبة على أمرها ، أو تخفي السلعة المحتكرة فى أشد أوقات الحاجة إليها ، وفي الحديث الشريف : « لا يحتكر إلاخاطىء » رواه أحمد ومسلم وأبوداود . « من احتكر حكرة ، يريد أن يغلي بها على المسلمين ، فهو خاطىء » رواه أحمد .

المبدأ الرابع : تحريم السرف والترف :

إن الإسلام لا يحب للناس الحرمان ، ولا الشظف ، بل يدعوهم إلى الاستمتاع بالطيبات : **﴿ يابنى آدم ، خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولاتسرفوا ، إنه لايحب المسرفين ﴾ ٣١ ـ الأعراف ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ ٣٢ ـ** الأعراف .

لكن الإسلام مع هذا لايبيح الترف والتبذير فيقول الله تعالى : **﴿ ولاتبذر تبذيراً ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ ٢٧** ـ الاسراء .

والترف محرم فى الاسلام ، لما يخلفه من انهيار ، وترهل في بنية الفرد ، ثم في بنية المجتمع ، ولأنه سبب في بث الفساد ، والتعفن في كيان الفرد وكيان الأمة على السواء ، وقد ربط هلاك الأمم بتسلط المترفين قال تعالى : **﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا ﴾ ١٦** ـ الاسراء .

والترف يقوم في الغالب على حساب شظف فريق من الأمة ، فهو امتصاص لدماء الجماهير ، بل ولجهودها ، واعتداء على حاجاتها ، وذلك يثير أحقاد النفوس ، وحزازات الصدور ، ويفقد في الجماعة المسلمة روح الإخاء الإسلامي ، وقد يدفع إلى الحرب ، ولذلك حرمه الإسلام ، بل إن الإسلام بقواعد أصول الفقه فى سد الذرائع ليفرض على الدولة الإسلامية أن تنزع وسيلة الخطر هذه من أيدي العابثين ، حتى تسلم للأمة وحدتها الاخلاقية ، وتوازنها الاجتماعي والاقتصادي .

المبدأ الخامس : تحريم حبس المال عند التداول ، فالكف عن الإنفاق في سبيل الله ـ يعني في تلبية الحاجات ، والمصالح التى تتم بها كلمة الله ـ يؤدى

إلى محظورات ومحرمات وفي الحديث الشريف : « من جمع ديناراً ، أودرهماً ، أو تبراً ، أو فضة ، ولايعده لغريم ، ولاينفقه في سبيل الله ، فهو كنز ، يكوى به يوم القيامة » .

والله عز وجل يقول : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولاينفقونها في سبيل الله ؛ فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يُحمى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جباههم ، وجنوبهم ، وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ! فذوقوا ماكنتم تكنزون !!** ﴾ ٣٤ ـ ٣٥ التوبة

المبدأ السادس : من أين لك هذا ؟

يقرر الإسلام الملكية الفردية ، ليلبى في النفس البشرية ميلها الفطرى العميق إلى التملك والاستحواز ، حتى تبذل أقصى نشاطها فى الإنتاج ، وتعطى الحياة كل ما أودع الله فيها من طاقة : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ؛ فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور** ﴾ ١٣ ـ الملك .

وبذلك تنمو الحياة ، على نحو مايقدر الله لها من النماء ، ويقرره ـ جل شأنه ـ لكل فرد من الرزق ، كذلك ليضمن لكل فرد مورد رزق مستقل بهذه الملكية ، فيحرره من العبودية للدولة أو للمجتمع ، ويمكّن الفرد بذلك من أن يقوم على حراسة شريعة الله : يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويصبر على ما يصيبه ، ولايخشي فى الله لومة لائم .

ولكن الاسلام يضع حول هذا الحق سياجاً يمنعه من التخلخل فيقرر حدوداً وقيوداً فى استخدام هذا الحق بحيث : لايؤذي أحدا فى سلوكه وخلقه ومعاشه ، ولايبخل بالمال عن واجباته فى سبيل الله ، ولايستبيح فى جمعه طرقاً لايوافق عليها الإسلام ، ولايعطل المال عن كونه قياماً للمجتمع .

وبهذا يحقق الإسلام كل مزايا الملكية الفردية ، وينفى عنها العيوب التي تجنح بها المذاهب الجماعية .

ولهذا يقرر حق الدولة فى سؤال أصحاب الملكية الفردية عن مصدر المال ، وعن الحقوق الواجبة فيه .

المبدأ السابع : الزكاة وفروض أخرى .

الزكاة من المال ، وهي عبادة وواجب اجتماعى ، فهي واجب اجتماعي تعبدي ، لذلك سماها الله : زكاة ، وهي نماء وطهارة ، إنها طهارة للضمير ، ونقاء للذمة بأداء الحق المفروض ، وهي طهارة للنفس والقلب من الشح ، وغريزة حب الذات ، فالمال عزيز ، والملك حبيب ، وحين تجود النفس به للآخرين ؛ فإنما تتطهر وترتفع وتشرف ؛ والزكاة حق الجماعة فى عنق الفرد ، لتكفل لطوائف من الأمة كفايتها أحياناً ، وشيئاً من المتاع بعد الكفاف أحياناً ، وبذلك يحقق الاسلام مبدأ ﴿ **كي لايكون دولة بين الأغنياء منكم** ﴾

فإن الإسلام يكره للناس الفقر والحاجة ، ويحتم أن ينال كل فرد من جهده الخاص حين يستطيع ، ومن مال الجماعة حين يعجز لسبب من الأسباب الشرعية المقبولة ، كذلك يكره الإسلام أن تكون فوارق الطبقات بين الأمة ، بحيث تعيش منها الجماعة فى مستوى الترف ، وتعيش أخرى فى مستوى الشظف ! يقول الرسول الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « إيّما أهل عرصة أصبح فيهم أمرؤ جائعا ؛ فقد برئت منهم ذمة الله » رواه احمد[1]

وفريضـــة الزكـاة تؤخذ بنظام ثابت مقرر فى أبواب الفقة الإسلامي ، وتقوم على جمعها الدولة الاسلامية كما تقوم على إنفاقها حسب نظام فقهي معروف ، وهي بذلك حق ثابت ، ومملوك للفقراء فى مال الله ، الذي أعطاه

---

١ ـ راجع العدالة الاجتماعية فى الاسلام ص ١٣٢ .. راجع كتاب السلام العالمي والإسلام ص ١٤٢ ومابعدها .

الأغنياء ، فليست هناك يد سفلى ويد عليا ، كما يدعي المرجفون ! لأن الدولة مطلقاً اذا حصلت ضريبة للتعليم وجعلت حصيلتها خاصة للأغراض التعليمية ، فهل يسمى هذا النظام تسولاً وشحاذة ؟ أم لأن هذا من عمل الدولة فلايوصف بالتسول ؟ ولأن ذاك عمل الله والاسلام فيحلو للمتحللين أن يقولوا عنه : إنه تسول . . ؟! أم هو التحكم في الحتميات المنهارة المتهافتة ؟!

الزكاة هي الحد الأدنى في الواجبات المالية على الأغنياء ، فأماحين لاتفي فإن الاسلام لايقف مكتوف الأيدي بل يمنح خليفة المسلمين ، أو أمير المؤمنين ، أو رئيس الدولة الاسلامية ، سلطات لتوظيف رؤ وس الأموال في أغراض تحتاج إليها الأمة والدولة ؛ وقد شاهد فجر المجتمع الاسلامي قبل أن تشرع الزكاة صورة الإخاء الرائع بين المهاجرون والأنصار ، حين تقاسم الأنصار والمهاجرون أموال الأنصار ، في ايثار كريم بديع يقول الله تعالى : **﴿ والذين تبوؤا الدار والإيمان يحبون من هاجر إليهم ، ولايجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه ، فاولئك هم المفلحون ﴾** ٩ ـ الحشر .

وفي عام المجاعة آلى عمر بن الخطاب على نفسه ، فلم يتذوق سمناً ، ولا لبناً ، حتى يتذوق الناس مثله ، وكان يقول : لولم أجد للناس مايسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بالحيا فعلت ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم .[1]

وبهذا يخرج الفرد وتخرج الطبقة معا من حجور الغابات الأنانية الصغيرة ، إلى سمر الحياة الاسلامية الفسيحة ، ويحس الفرد أنه لايعيش وحده ، وتحس

---

١ ـ المال والحكم في الاسلام للمرحوم الاستاذ عبد القادر عودة ص٤٨ راجع كذلك كتيب : « الاسلام والتكافل الاجتماعي » لفضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت .

الجماعة أنها لاتحيا لجيل واحد ، ولكنها تعيش للإنسانية قاطبة ، ويدرك المسلمون بهذا أنهم الأوصياء على منهج الله في الأرض ، لتحقيق العبودية لله وحده ، وإذن فلا وقت للصراع الفردي ؛ أو الطبقى ، أو القومي ، فتلك صغائر صغيرة تجاه الأهداف العليا : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ ١٩ ـ القتال . ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ؛ تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴾ ١١٠ ـ آل عمران . ﴿ إنما المؤمنون أخوة ﴾ ١٠ ـ الحجرات ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ؛ فاذا الذي بينك وبين عداوة كأنه ولي حميم ﴾٣٤ ـ فصلت .

﴿ ادفع بالتي هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾ ٩٦ ـ المؤمنون . ﴿ يأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ ١٣ ـ الحجرات .

وإذن فلا صراع !!، بل محبة وأنس وإخاء !!



لقد توالت على الشرق العربي الاسلامي عدة حضارات غازية بالسلاح ، والفكر ، والسياسة ، والاقتصاد ، وكلها كانت عقيمة، وبقى الشرق العربي مسلمًا ، كما شاء الله له أن يكون ، حاملاً لصفات خير أمة أخرجت للناس !

واذا صح المقياس ـ وهو لا شك صحيح ـ وآمنا بما وقع في هذه المنطقة من ألوان القهر الصليبى التتري ، الانجليزي ، ثم الروسى .. أخيراً ؛ فإن الظاهرة التي نطمئن إليها : إن طبيعة الشرق العربي طبيعة اسلامية ، لن يؤثر فيها عجرفة المستبد المستعمر أو الحاكم الطاغي !

وعندما يكون هذا هو مقياس البقاء ، وظاهرته الصحية الملموسة ، فإن الروسى يقف بعد الانجليزى والفرنسي على قدم سواء ، وصف حذاء ، في

أنه ينادي بمذهب عقيم ، بل إن الروسى ليبدو متخلفاً رجعياً بنظامه الذي لم يملك البقاء بغير الوسائل الوحشية البشعة ، وبغير الخيانة والخداع والكذب والتضليل ، وحمامات الدم ومعسكرات الاعتقال ؛ لأنه مذهب قوي المصادمة للفطرة الانسانية ، وشديد الصراع مع ملكات النفس البشرية ، مثل ماحدث في افغانستان ، وبولندا حديثاً !!

لقد فسدت النظرية أيام صاحب السخيمة : لقد فسدت في نظرية « فائض القيمة » ووعد أنه سوف يعيد النظر فيها ، وهلك قبل أن ينظر ، وفسدت النظرية في التركيز من جانبين :

جانب كثرة الأسهم في الشركات ، والمصانع الكبرى للطبقة المتوسطة ، وجانب أن ماركس ألغاهما بالنسبة للحياة الزراعية في روسيا !

وفسدت النظرية في التطبيق ، فاتجه الروس إلى اقرار الحافز الشخصي ، وتمليك المزارع الجماعية ، وتمليك السكن وتوريثه ،

وفشل النظرية بعد إراقة دماء الملايين ، مع كمال التسلط ـ أكبر دليل على مصادمتها للفطرة : فطرة الكون ، وفطرة الانسان !! وإذن فما تدعيه الماركسية من اكتشاف قوانين اجتماعية هو هراء وتضليل !

إن الماركسية من الوجهة النظرية البحتة تقوم على جهالة عميقة بالنفس البشرية ، وطبيعتها وتاريخها ، فضلاً عن الجهالة العميقة بالكون ؛ فهي إذ تصور جميع الدوافع الإنسانية قائمة على جوعة المعدة ، والصراع على « رغيف العيش » وتصور الحركات التاريخية منبثقة من تغير أدوات الانتاج تلغى أهم مقومات الإنسان ، التي تفرق بين تاريخه وتاريخ البهيمة . . كما أنها تلغي أهم وظائف الإنسان ، وهي أن يكون العامل الإيجابي الأول في هذه الأرض وفي أطوار التاريخ .

ثم نتصور فجأة أن المستقبل خلو من وراثات البشرية ، نفترض أن الناس سيتحولون إلى ملائكة خيرين ، يأخذ كل حقه بلا زيادة ، ويعطى كل حقوق الآخرين بغير بخس ، وينتهى طمع الطامع ، وحيلة المحتال ، وكسل الكسلان ، كما ينتهي حب الرياسة والاستئثار ، ونزاع المتنازعين على مراكز التدبير والادارة ، ويجرى التصريف بغير مدير ، ولا يخطر في بال أحد أنه أحق بمركز ، وتعم هذه الظاهرة الأرض كلها شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، وكل ذلك دون حكومة أو رقابة ، ودون عقيدة تطمعه في جنة ، أو تخيفه من نار ، ودون سبب معقول ، اللهم إلا « الحتمية » المحتومة !!! .

يقول المرحوم الاستاذ العقاد : مثل هذا التخريف يخجل منه كل حالم في « طوباه » والاشتراكية العلمية تزعم أنها ترفض هذه الطوبيات وتزدريها ؛ فماذا وقع في ذهن « ماركس » حين تخيل أنه بعيد من الطوبيات ، وهو غارق فى لجتها ، لايملك أن يرفع عينيه من فوقها . . . ؟!

وإذا يصنع المسكين في العلم الواقع ، وفي المصير الذي لامهرب منه ، ولاحيلة فيه ، ولاقرار دونه ولافرار . »[1]

وذا كان هذا التصور العلمي الادعائى عن المستقبل يبدو خرافة ، فإنه تصور مناقض للتاريخ نفسه ، وأبعد جهالة فى إدراك حقيقة الكون والبشرية .

وحين يكون هذا الجهل العميق هو أساس التصور الماركسي ، فإننا كبشر ، ثم كمسلمين ، لانصدق أن يقوم على أساسه واقع فاضل ، له صفة العلمية والعملية المنتجة في الحياة ؛ اللهم إلا إذا أريد فرض النظام القائم على مصادمته لفطرة الكون ، وتطرف الانتاج ، وجهله بالتاريخ ، وأجبر الناس عليه إجباراً ! ومن ثم كانت حمامات الدم ، التي اقامها الشيوعيون عشية الثورة في روسيا . . ملايين العمال قتلوا ، من أجل فرض نظام ضد الفطرة ؛

---

١ ـ راجع الشيوعية والانسانية ص ٣٧٢/٣٧٣ .

ومن ثم اضطربت الماركسية واضطرت عند التطبيق العملي في كل دولة شيوعية للتخلي عن مقدساتها ، وعللت تخليها هذا بأن الماركسية مذهب متطور ، وهو كذلك لأن المذهب المتطور لايدعى لقضاياه صفة الحتميات .

لقد تحطمت النظرية الماركسية التي تدعي لنفسها العلمية . تحطمت !! تحت مطارق فطرة الله في الكون ، وفي الانسان ، ولم يبق إلا الدولة ، والأنظمة البوليسية ، التي تعرفها روسيا القيصرية الارثوذكسية !! ووفق قضايا النظرية الماركسية المهشمة تحت مطارق الفطرة ، فإن ما يقال له « الدولة » ينبغي أن تكون في الأخبار الغابرات ، أوفي طريق الذبول والأفول ، لأنهم يحلمون بمجتمع من طبقة واحدة ، لاحكومة فيه ، ولامحكومية ، والذي يشاهد الآن في روسيا القيصرية الشيوعية الامبريالية أن الدولة تتضخم يوماً بعد يوم !!

ومن المضحك جداً ! أن الماركسية التي تفترض إمكان قيام مجتمع بدون حكومة ، تنتهى إلى أن تكون الحكومة هي الشيء الوحيد الذي له الوجود ! حيث ألغي وجود الفرد ، والمجتمع ، والشعب ، بل ألغيت فطرة الإنسان من قبل هذا !! والكل الذي ألغى وجوده من أجل وجود الحكومة .

ومن المضحك كثيراً ! أننا نجد في شرقنا العربي المسلم من يظل يدعو للماركسية ! ذلك الهشيم الذي ينتظر مكنسة الزمن ؛ لينظف الوجود والفطرة والإنسان من سخيمته !!

إن الماركسية لا تزيد على أن تكون جهالة علمية منقطعة النظير ! أما نظامها البوليسي الذي قام باسمها ، فهو نظام تعرفه روسيا القيصرية الأرثوذكسية من قبل ، وهو نظام يطبقه شعب تجرد من آدميته ، أما الآدميون الذين يحترمون وجودهم الإنساني ، فلا يصبرون عليه طويلاً .

وعلى الرغم من سيطرة الحزب الشيوعي في روسيا ، فهو قليل العدد ! .

ـ وعلى الرغم من سيطرة الحزب القليل العدد على موارد الارتزاق والاعلام ، وعلى الرغم من معسكرات العمل في سيبيريا ، وحركات القمع ؛ فإن ملايين من البشر يكنون الكراهية المريرة للحزب ونظامه ، وللماركسية جميعاً ، ونحن نتحدى الاتحاد السوفياتي ! ـ إن كان حقاً لديه أدني فهم لقيمة الإنسان ـ أن يعلن الانتخابات الحرة ، لاختيار نوع نظام الحكم في روسيا !!

فليرفع الماركسيون يدهم الحديدية من فوق هامات الشعب الروسي ، لينظر التاريخ ماذا سيكون ؟!

سوف يرجع الناس فى موسكو إلى الفطرة ، سوف يعودون إلى الإيمان بالله ورسله ، والجري السريع نحو كرامة الانسان ، ومعناه وقيمه ، وهنا يكون المضيف لهذه الفطرة والملبي لرغائبها هو الدين !! الدين الحنيف : هو الإسلام .

لقد حمى الاسلام الوطن الاسلامي في الشرق من هجمات التتار ، كما حمى الاسلام الوطن العربي الإسلامي من هجمات الصليبيين ، ولو انتصر الصليبيون فى الشرق كما انتصروا قديماً في الأندلس ، أو كما انتصرت الصهيونية حديثاً في فلسطين ؛ فما كان ليبقى لهذا الشرق العربي لغة ، ولا وطن ، ولا قومية .

وقد لعبت العقيدة الاسلامية دوراً بارزاً وهاماً في حماية الوطن العربي من هجمات الغزو التتري ، والصليبي ، ثم الشيوعي ، الذي فضح نفسه في داخل معسكره ، وفي خارج معسكره ، وسوف تكون عليه الدائرة إن شاء الله !!!

